فضيلة الشيخ

محمد محمد المدني

النفس الإنسانية

تحت ضوء القرآن والسنة

جمع وإعداد

الشيخ أحمد مصطفى فضلية

خادم العلم والعلماء

تقديم

أ.د/ عادل محمد محمد المدني

الأستاذ بكلية الطب

جامعة الأزهر



بسم الله الرحمن الرحيم

من الدستور الإلهي

١- ﴿ يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَراً وَمَا عَمِلَتْ مِن سُوءٍ.. ﴾ (سورة آل عمران الآية رقم ٣٠)

٢- ﴿ وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئاً وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَى بِنَا حَاسِبِينَ ﴾ (سورة الأنبياء الآية ٤٧)

٣- ﴿ مَنْ عَمِلَ صَالِحاً فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ ﴾ (سورة فصلت الآية رقم ٥٢)

٤- ﴿ سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴾ (سورة فصلت الآية رقم ٥٣)

٥- ﴿ وَفِي أَنفُسِكُمْ أَفَلا تُبْصِرُونَ ﴾ (سورة الذاريات الآية رقم ٢١)

٦- ﴿ وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَى، فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَى ﴾ (سورة النازعات : ٤٠ – ٤١)

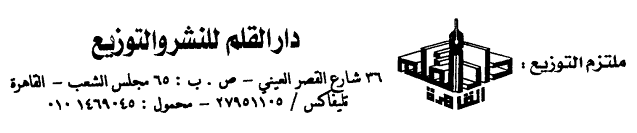
٧- ﴿ وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا، فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا، قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا، وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّاهَا ﴾ (سورة الشمس : ٧ – ١٠)

النفس الإنسانية

تحت ضوء القرآن والسنة

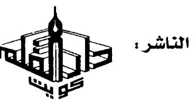
الطبعة الأولى
١٤٢٩ هـ - ٢٠٠٨ م

ملتزم التوزيع :



دار القلم للنشر والتوزيع
٣٦ شارع القصر العيني - ص . ب : ٦٥ مجلس الشعب - القاهرة
تليفاكس / ٢٧٩٥١١٠٥ - محمول : ٠١٠١٤٦٩٠٤٥

الناشر :



دار القلم للنشر والتوزيع
شارع السور . عمارة السور . الدور الأول شقة ٨ . ص.ب ٢٠١٤٦ الصفاة
هاتف : ٢٤٥٧٤٠٧ / ٢٤٥٨٤٧٨ . فاكس : ٢٤٢٥١٦٠

إهداء

إلى علماء النفس والتربية

وإلى كل نفس تريد الحياة

في رحاب الله

فتصعد إلى مدارج

السمو والكمال والرقي

فتتحقق إنسانية الإنسان

الصالح المصلح

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

الْحَمْدُ للّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ * الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ * مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ

* إِيَّاكَ نَعْبُدُ وإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ * اهدِنَــــا الصِّرَاطَ المُستَقِيمَ *

صِرَاطَ الَّذِينَ أَنعَمتَ عَلَيهِمْ غَيرِ المَغضُوبِ عَلَيهِمْ وَلاَ الضَّالِّينَ



على سبيل التقديم

بقلم: أ.د/ **عادل محمد محمد المدني**

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على النبي الأمين، محمد بن عبد الله عليه أفضل صلاة وأزكى تسليم وعلى إخوانه النبيين جميعًا أفضل صلاة وتسليم، وعلى الصحابة المجاهدين وأهل بيته الطاهرين ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين.

وبعد:

فهذه كلمات أكتبها على سبيل التقديم لهذا الكتاب الذي يجمع بين دفتيه إحدى دراسات والدي الشيخ العالم الأزهري الكبير محمد محمد المدني – رحمه الله –، عن [النفس الإنسانية تحت ضوء القرآن والسنة] وهي من الدراسات المبكرة في هذا الميدان.. ونشرت في حلقات متتابعة بمجلة «منبر الإسلام» في العقد الرابع من القرن العشرين.

وأنا هنا أكتب بعقلي وقلبي، فمحال أن أتجرد عن عاطفة البنوة تجاه الأبوة المثالية. فقد كان الشيخ الوالد، نعم الأب، ونعم المربي جمعنا في حياته على العلم والدعوة والتربية والتهذيب، وإعطاء كل واحد منا كامل الحرية في اختيار مجال دراسته التي يرغبها ويحبها ويتفوق فيها. وغرس فينا أن المسلم يجب أن يتقدم الصفوف، ويخدم دينه وأمته المسلمة كلٌّ في مجال تخصصه. وبفضل الله وتوفيقه ثم رعايته لنا حققنا آماله فينا بتفوق واقتدار في مجالات عملنا. وأعتقد أننا نترك آثاراً تدل على حسن تربيته لنا في محيط عملنا.

ولعل فِكْرَ الشيخ في هذا الكتاب الممتع يعطي القارئ العزيز صورة مضيئة للشيخ كعالم مربي يعلم طبيعة النفس الإنسانية، فيحسن التعامل مع نفسياتنا، وأرى أنه نجح نجاحًا مبهرًا في هذا، جزاه الله عنا خير الجزاء.

وعن هذا الكتاب الحبيب إلى نفسي أقول:

لقد كان باعث والدنا الشيخ محمد محمد المدني رحمه الله، هو إدراكه في ذلك الوقت المبكر أن جميع ما حققه العلماء من تقدم فيما يتعلق بدراسة الإنسان غير كافٍ، وأن معرفة الإنسان بنفسه مازالت ناقصة. وقد تابعه في ذلك بعض دارسي علم النفس الذين لم تتوفر لهم ثقافة إسلامية عميقة وواسعة بكتاب الله وعلومه، والسنة وعلومها.

وما كتبه علماء الإسلام الكبار أمثال جمهرة المفسرين للقرآن العظيم وعلماء النفس والتربية والدعوة أمثال ابن القيم، وابن تيمية، وابن الجوزي وابن رجب الحنبلي، والماوردي، وابن مسكويه، وأبو حامد الغزالي، وابن حزم وابن خلدون، وغيرهم كثير من أعلام أمتنا المسلمة، ممن اهتموا بأدب النفس وتزكيتها وترقيتها وإصلاحها وصلاحها.

لقد كانت محاولات الوالد الشيخ الفاضل محمد محمد المدني في هذا الكتاب الصغير الحجم الغزير العلم تهدف إلى لفت الانتباه إلى ضرورة دراسة علم النفس الغربي مع الديانات السماوية حيث أنها بمثابة كتاب الإرشادات الذي يأتي مع الأجهزة الكهربائية ليوضح ويفسر تشغيله مما يؤدي إلى ظهور مدرسة علم النفس الإسلامي، الذي يصحح ويصوب الكثير من الأفكار والتصورات الغربية التي تدرس علم النفس الإنساني بمعزل عن الله، وهذا خطأ فادح في حق الإنسان لا يمكن قبوله.

وعلى الذين يؤمنون بأن الله هو الذي خلق فسوى، وقدر فهدى، وجعل فلاح الإنسان في زكاة نفسه، أن يعودوا بالدراسات الإنسانية إلى منبعها الأصيل ومنهجها المستقيم في القرآن والسنة، وصدق الله العظيم إذ يقول: ﴿**أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ**﴾ (الملك: ١٤)، ﴿**وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا ۝٧ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا ۝٨ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا ۝٩ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّاهَا**﴾ (الشمس: ٧ - ١٠).

وقد استطاع والدي الشيخ المدني رحمه الله في هذا الكتاب :

أن يقدم لأمته المسلمة لون جديد من البحوث، أساسه بيان ما للقرآن والسنة المطهرة من أصالة ورسوخ قدم في شئون الحياة الإنسانية، مادية كانت أو معنوية، وأنهما نبعان فياضان بكل ما يصلح عليه البشر من علم وعمل ومبادئ وأخلاق، وبكل ما يهدي إلى سنن الاجتماع، وعبر التاريخ، والعوامل النفسية للأمم والأفراد، مما له أثر بالغ في حياة البشر، ومعونة قوية لمن كانوا في مراكز التوجيه والقيادة والتربية.

وقد أدرك الوالد العالم الجليل الشيخ المدني أن أصحاب هذه المراكز التوجيهية في حاجة قصوى إلى دراسة العوامل النفسية التي تحرك كلاً من الفرد والجماعة في هذا الاتجاه أو ذاك.

* * *

ولقد كان الوالد رائعًا حقًا حين حدد هدفه من دراساته هذه عن النفس الإنسانية تحت ضوء القرآن والسنة بقوله :

[ومن الواضح أن النفس التي هي موضوع هذه الفصول التحليلية، ليست هي النفس بمعنى الروح الذي تكون به حياة الجسم المادية، وليست هي الإنسان كله، أي هذه الذات، وهذا القالب الشخصي بجميع محتوياته أو مشتملاته، إن دراسة الإنسان من الدراسات الصعبة خاصة إذا كان الإنسان هو موضوع الدراسة، ولكن موضوع هذه الدراسات هو أقرب إلى ما يقول عنه اللغويون : « ما به يكون التميز »، غير أن هذا التعبير لا يؤدي المعنى المقصود لنا من كل ناحية، فإنما نريد « بالنفس الإنسانية » هذا المورد الخفي الذي يشعر به كل منا في دخيلته، والذي تصدر عنه جميع تصرفاته الخلقية والعاطفية، والذي هو معرض غرائزه أو ملكاته، ومالها من تفاعل فيما حوله، وفيمن حوله، على سبيل التجاوب أو التدافع.

هذا المورد الداخلي الخفي في الإنسان، وهذا المعرض لغرائزه وملكاته، وهذا المصدر لخواطره واتجاهاته، هو ما نريده « بالنفس الإنسانية »، وهو مدار تلك

البحوث التحليلية المستندة إلى الكتاب والسنة].

* * *

إنني أعتقد أن نشر هذه البحوث في هذا الجو المادي الطاغي، سيلبي حاجة تربوية عند القارئ المسلم، والفضل في هذا لله سبحانه الذي لا يضيع أجر من أحسن عملاً، ثم لهذا الشاب الأزهري المحب للعلم والعلماء الشيخ «أحمد مصطفى فضلية» فجزاه الله خير الجزاء، على جهوده في جمع ونشر تراث العلماء في شمول وكمال، وتقبل الله منا ومنه صالح العمل وهدانا جميعًا إلى الصراط المستقيم، والحمد لله أولاً وآخرًا.

أ. د. عادل محمد محمد المدني
أستاذ الطب النفسي
بكلية الطب – جامعة الأزهر

تحريرًا في القاهرة :
١٩ من شعبان ١٤٢٧ هـ
١ من سبتمبر ٢٠٠٧ م

بسم الله الرحمن الرحيم

وبه نستعين

الحمد لله ونستعينه ونستغفره ونتوب إليه، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأشهد أن محمداً عبده ورسوله صلى الله عليه وعلى آله وأصحابه ومن تبعهم بإحسان وسلم تسليمًا كثيراً.

وبعد...

فإن علماء النفس المسلمين يؤكدون عن إيمان وعلم ودراية أن القرآن الكريم كتاب أدب وتربية. وإيمان وتزكية، وهداية وإرشاد ودعوة وبلاغ، وتشريع وقانون، عبادة وحضارة، عقيدة وجهاد، دنيا وآخرة أنزله الله سبحانه وتعالى على النبي محمد ﷺ للناس كافة بشيراً ونذيراً وهاديًا إلى صراط الله المستقيم، يخاطب فيه عقل الإنسان ووجدانه، ويعلمه عقيدة التوحيد، ويزكيه بالعبادات، ويهديه إلى ما فيه خيره وصلاحه في حياته الفردية والاجتماعية، ويرشده إلى الطريق الأمثل لتحقيق ذاته، ونمو شخصيته وترقى نفسه في مدارج الكمال الإنساني حتى يستطيع أن يحقق لنفسه السعادة في الدنيا والآخرة.

﴿ هُوَ الَّذي بَعَثَ فِي الأُمِّيِّينَ رَسُولاً مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِه وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِي ضَلالٍ مُّبِينٍ ﴾ (الجمعة: ٢)، وقد كشف الله سبحانه لنا في قرآنه العظيم طبيعة النفس البشرية والكثير من خصائصها التي يحملها كل منا، وردّ فعلها، وسلوكها تجاه خالقها بما يتمثل في سلوكها مع الكثير من رسله الكرام الذين أرسلهم الله تعالى لهدايتها، وإنقاذها من براثن الجهل والضلال، وما ذاك إلا لندرسها، ونتفهم سلوكها، وبذلك يسهل علينا ترويضها والسير بها في الطريق القويم الذي أراده الله لها في دنيانا ودنياها، لتضمن بذلك الفوز في أخراها.

وهذا الكتاب يقدم للقارئ ما كتبه الشيخ العالم الفقيه والداعية المصلح محمد محمد المدني رحمه الله عن «النفس الإنسانية في ضوء القرآن والسنة».

وهي المقالات التي تم نشرها في مجلة «منبر الإسلام القاهرية» في عشر حلقات متتابعة عام ١٣٧٨هـ.

والتي شرح فيها ما يجب أن يتحلى به الإنسان المسلم من إيمان بإعجاز القرآن في العقيدة والتشريع والتربية وإيمان وتحلي بالقيم الأخلاقية، والفضائل الثابتة، مما يتصل بأدب النفس والضمير، وتطهير الباطن الجواني، وتزيين الظاهر بمكارم الأخلاق، ومحاسن الآداب، وما يجب أن يكون عليه بناء الحياة الاجتماعية على أسس من السلوك الاجتماعي السليم، والتفاعل الذي تعود ثمراته الطيبة على الأمة بالسكينةُ والثقة والطمأنينة، والبر والتعاون على الخير. كل هذا بأسلوب تطبيقي، وبألفاظ قريبة وعبارات سهلة، وعرض واضح.

وقد أعلن المؤلف أن هذه البحوث تعتمد على مصدري الإسلام المباركين: كتاب الله تعالى، وسنة رسوله ﷺ، ولكنه مع ذلك ليس بحثًا في التفسير، ولا في الحديث، ولا في الفقه، ولا في غير ذلك من الأسماء التي صارت أعلامًا لبحوث خاصة معروفة بين أهل العلم. وإنما هو لون جديد من البحوث، أساسه بيان ما للقرآن الكريم والسنة المطهرة من أصالة ورسوخ قدم في شئون الحياة الإنسانية مادية كانت أو معنوية، وأنهما نبعان فياضان بكل ما يصلح عليه البشر من علم وعمل ومبادئ وأخلاق، وبكل ما يهدي إلى سنن الاجتماع، وعبر التاريخ، والعوامل النفسية للأمم والأفراد، مما له أثر بالغ في حياة البشر، ومعونة قوية لمن كانوا في مراكز التوجيه والقيادة والتربية.

ويهدف الشيخ المؤلف كذلك من هذه البحوث:

« ... أن نصل إلى تربية ملكة جديدة من ملكاتنا، تجعلنا قادرين على استقبال آيات القرآن الكريم، وسنة رسوله ﷺ الصحيحة، بروح الباحث الفاحص

عن كل ما لها من دلالات علمية، ومن توجيهات عملية، ومن إيحاءات ومن إشارات إلى المبادئ والمثل والعبر، ولا نكتفي من القرآن والحديث بالكشف عن غريب الألفاظ أو عن مشكل التراكيب، أو عن وجوه البلاغة والبيان، أو عن مصادر الأحكام الفقهية، أو الآراء الكلامية أو نحو ذلك مما هو قطعًا من مباحث الناظرين فيهما، ومما له قطعًا أهميته في تكوين رجل القرآن والحديث والفقه والكلام والبلاغة والبيان».

هذا وقد قسمت الكتاب إلى فصول وجعلت لكل فصل عنوانًا ينبئ عن مضمونه ومحتواه.

١- فجاء الفصل الأول بعنوان: (مقدمة في بيان سر عظمة القرآن العظيم).

وفيه أكثر الشيخ المؤلف على أمر هام جدًا يجب أن يبرز في مظاهر إعجاز القرآن الكريم، وأن يعطيه حقه من العناية:

ذلك هو ما جاء به القرآن الكريم، من المبادئ والشرائع والقصص واستخلاص العبر، والإرشاد إلى سنة الكون، والتوجيه إلى دراسة الأشياء، والإفادة من خواصها ومالها من دلالات ونحو ذلك.

٢- والفصل الثاني: جعلته تحت عنوان: (الإنسان في القرآن).

وفيه يقف الشيخ موقف الاعتزاز بإنسانيته، إذ يشعر بأنه واحد من هذا الجنس الذي كرم لحمل الأمانة وخوطب خطاب التكليف والتشريف، ونوشد هذه المناشدة من الله العلي الكبير، وما ذلك إلا لأن هذا المخلوق قد أحيط من الخالق بمختلف أنواع العناية في خلقه وتربيته، وإعداده وإمداده.

ولهذا يدعونا الشيخ إلى الإيمان بهذا الإنسان، الإيمان بقيمته الكبرى كما تبدو عناية الله به. وتكريمه إياه، الإيمان بأنه ميسر لرسالة كبرى خلقه الله لها، وزوده بأدواتها.

٣- أما الفصل الثالث (القرآن - الإنسان - الأمانة) .

فيكشف لنا فيه المؤلف عن الوجه الأمثل لتفسير قوله تعالى : ﴿ **إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ ...** ﴾ (الأحزاب : ٧٢)، على أنه تمثيل وتقريب لحالة تكوينية، فليس هناك عرض حقيقي من الله وإباء وإشفاق حقيقيًا من هذه المخلوقات، وإنما هو أسلوب جاء على ما عهده العرب من كلامهم .

٤- ويأتي الفصل الرابع تحت عنوان : (تهيئة الإنسان لأداء الأمانة) .

فقد قام المؤلف بتفسير قوله تعالى : ﴿ **وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً** ﴾ (البقرة : ٣٠)، من خلال الموازنة القرآنية بين هذين النوعين من الخلق، وهما الإنسان والملائكة وانتهى إلى تقرير الحقيقتين الآتيتين :

١- الملائكة خلق مسبح بحمد الله مقدس له . كل ما يصدر عنهم هو طاعة وعبادة، ولا يمكن أن يصدر عنهم عصيان لله، وخروج على أمره .

أما الإنسان فهو خلق ليصدر عنه الفساد وسفك الدماء .

٢- الإنسان قد خص بموهبة لم يهبها الله ملائكته، وهذه الموهبة هي أساس استحقاقه الخلافة في الأرض من دونهم .

٥- وفي الفصل الخامس : (أنواع النفس الإنسانية) .

وفي هذا الفصل يبين الشيخ المؤلف أن (النفس) التي هي موضوع هذه الفصول التحليلية، ليست هي النفس بمعنى الروح الذي تكون به حياة الجسم المادية وليست هي الإنسان كله، أي هذه الذات .

فإنما نريد « بالنفس الإنسانية » هذا المورد الخفي الذي يشعر به كل منا في دخيلته، والذي تصدر عنه جميع تصرفاته الخلقية والعاطفية، والذي هو معرض غرائزه أو ملكاته، ومالها من تفاعل فيما حوله، وفيمن حوله، على سبيل التجاوب أو التدافع .

٦- أما الفصل السادس: فقد جعلته تحت عنوان: (رعاية القرآن للنفس الإنسانية).

فأوضح فيه الشيخ المؤلف رعاية القرآن العظيم للنفس الإنسانية فيقول:

والعبرة التي نفيدها من هذا كله أن القرآن الكريم واقعي في شأن النفوس وتربيتها وأنه تنزيل الحكيم الحميد الذي يعلم أن الإنسان ولو كان مؤمنًا، هو معرض لكثير من الخواطر والوساوس، وما يداخل النفوس وأن إيمانه ما هو إلا مركز يتركز فيه، ويجب أن يحاط دائمًا بما يدرأ عنه الغوائل، ويدفع العدو المهاجم، ولذلك نرى القرآن الكريم يتخول الناس حينًا بعد حين بالآيات الكونية، ويلفتهم إلى كثير من أسرار هذا العالم ويرد على ما قد يثيره بعضهم، أو يثور لديه من شبه، وهكذا فالغاية من ذلك كله هو حياطة إيمان المؤمنين، وتجديد مادة غذائهم حتى لا يصاب إيمانهم بمثل ما تصاب به الأجسام حين يعوزها الغذاء فتضعف هي، ثم تضعف مقاومتها تبعًا لضعفها، فتهاجمها العلل والأمراض فتجدها سهلة متقبلة لها.

٧- ويأتي الفصل السابع: (النفس المطمئنة ... وكيف تتحقق؟).

فيؤكد أن الطمأنينة منزلة عليًا من المنازل التي تترتب على الإيمان ويبين مبعث الطمأنينة التي بها تكون النفس مطمئنة، ومن تأمل كتاب الله تعالى وجده يرمي إلى هدفين عظيمين بهما تتحقق الطمأنينة.

أحدهما الطمأنينة بالعرفان والآخر الطمأنينة بالإحسان، أما الطمأنينة بالعرفان فإنها هدف القرآن من كل ما يذكره عن الله ووحدانيته وصفات جلاله وجماله، وبديع قدرته، ودقيق صنعه، ومظاهر تقديره وتدبيره.

وأما الطمأنينة بالإحسان، فنقصد بها الطمأنينة بالطاعة، فإن العقيدة وإن بعثت الثقة فيمن يعتقد، لابد من العمل بمقتضاها حتى تستريح النفس إلى أنها قامت بحق من تعتقده، ولن تخرج عليه بفسق عنه، أو عصيان له، مع الإصرار عن غفلة أو استكبار.

٨- وفي الفصل الثامن: (موازنة نفسية ... بين أنواع القلوب).

فقد أهتم المؤلف ببيان التقسيم الإلهي للقلوب، الذي أتى به القرآن الكريم، وجلى ما يشتمل عليه من دراسة للنفس الإنسانية، فذكر أنواعًا ثلاثة من القلوب التي توجه إليها دعوات الحق والهدى عن طريق الرسالات والنبوات، وهذه القلوب الثلاثة هي: ١- القلوب المريضة ٢- القلوب القاسية ٣- القلوب المخبتة، وكما ذكر أن الاطمئنان ينبعث عن العرفان والإحسان، فإن القلق والتزلزل والجحود والعصيان إنما تنبعث عن خلل يصيب القلوب، قد يصل بها إلى أن تفقد خاصتها من الإدراك السليم، والتوجيه إلى الصراط المستقيم.

٩- ويأتي الفصل التاسع: (نفوس ودروس من القرآن والسنة).

ليتحدث عن أصل نفسي تربوي عظيم، هو أن الإنسان مادام حيًا فلابد له من إرادة وعمل فإذا لم تتجه نفسه إلى الحق، اتجه إلى الباطل، وإذا لم تشتغل نفسه بعمل الخير، انحدر إلى عمل الشر، فلا واسطة، لأن الواسطة هي فراغ النفس، وتعطل صفات الفطرة.

ولما كان فراغ النفوس محالاً، حرص علماء النفس وحذاق المربين على أن يشغلوا الشباب بالأعمال الهادفة، وألا يتركوهم ينحدرون بحكم هذه الفطرة إلى الأعمال الهازلة أو التافهة أو الفاسدة، كما حرصوا على أن يملئوا القلوب بالعقائد الصحيحة، والمبادئ السليمة، والمثل القويمة، لئلا يندفعون إلى ما يناقض ذلك، فإن الذي لا يؤمن لابد أن يجحد، والذي لا يمتلئ قلبه بالفضيلة لا يلبث أن يقع في مهاوي الرذيلة، والذي لا يسير في الطريق المستقيم، لابد أن يسير في طريق الضلال والفساد.

١٠- ويأتي الفصل العاشر: (موازنة بين النفس المطمئنة والنفس اللوامة).

فيبين فيه الشيخ المؤلف أن القرآن الكريم يلفت الأنظار إلى لون من ألوان النفوس البشرية، هو تلك النفوس التي لم تتمخض للخير تمامًا، ولم تتمخض للشر تمامًا، وإنما هي وسط بين بين، تنساق مع الطبيعة الإنسانية في ضعفها أحيانًا، ولكنها

تفيق ولا تسترسل وتراجع ما كان منها، وتلتمس التطهر منه بالندم عليه.

وهذا النوع من النفوس، أو بعبارة أخرى، هذا الاتجاه النفسي إلى التهذب وإلى التطهر، هو الذي يرمي القرآن إلى إيجاده وإبرازه فهو الوسط الذي لا تكاد تخرج الطبيعة الإنسانية في أحسن صور صلاحها عنه، والله تعالى يقول في صفات المتقين: ﴿ وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُواْ فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُواْ أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُواْ اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُواْ لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلاَّ اللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّواْ عَلَى مَا فَعَلُواْ وَهُمْ يَعْلَمُونَ، أُولَـٰئِكَ جَزَآؤُهُم مَّغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَجَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ ﴾ (آل عمران: ١٣٥، ١٣٦).

فالله تعالى لا يصف المؤمنين المتقين بأنهم الذين لا تصدر منهم الذنوب أبداً، ولكن يصفهم بأنهم الذين يراجعون أنفسهم إذا وقعوا بحكم طبيعتهم وفطرتهم الإنسانية في ذنب من الذنوب. وسبحان الحكيم العليم بذات الصدور، ﴿ أَلا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ ﴾.

١١- وأما الفصل الحادي عشر: (دعائم البناء الروحي في الإسلام).

فقد تحدث فيه المؤلف عن الإيمان بالله، والإيمان بالنفس، والإيمان بالمثل والقيم.

وأبان الشيخ أن الروحية في الإسلام أساسها وغرضها سياسة الإنسان سياسة توجيهية من قبل الجانب الروحي فيه، ترمي إلى الموازنة بين عنصري تكوينه، فهو يعطي الروح حقها، ويعطي المادة حقها، ويعدل بينها عدلاً به تصلح الحياة، ويستطيع الإنسان أن يؤدي رسالته فيها.

وسياسة الإنسان، أو قيادته، من جانب الروح فيه، هي سياسة ناجحة، ودائمة، وفعالة، وأكثر من سياسته من جانب المادة.

١٢- أما الفصل الثاني عشر: (الله والحب).

وفيه يشرح أن المؤمن الصادق المخلص يكون متوحد القصد، متجهاً في كل ما يصدر عنه اتجاهاً واحداً لا يميل عنه يمنة ولا يسرة ذلك بأنه يعرف الحقيقة فيذوق لذة عرفانها، ولا يعرف لنفسه إلا محبوباً واحداً يؤثره على كل ما سواه، ولا يرى

لنفسه فضلاً في ذلك، لأنه يرضى معنى في قلبه، يستريح إليه وتطمئن به روحه، والذين يحبون الله هم الذين يتجردون لتوحيده في حبهم وفيما يقتضيه هذا الحب من رضا بما يفعله وحرص على ما يرضيه وانصراف عما يكرهه.

١٣- وأما الفصل الثالث عشر: (منهج الإسلام في تكوين الفرد).

فيبين فيه الشيخ المؤلف أن أقوى المناهج لتكوين الفرد في أمة من الأمم هو المنهج الذي يجعل منه إنسانًا صالحًا بالنسبة لمجتمعه.

والإسلام يكفل للفرد منهج الصلاحية في الجانبين: فإن أول ما يعنى به الإسلام في تربية الأفراد، هو غرس حقيقة الإيمان في قلوبهم.

ويؤكد على صفتين من الصفات: إحداهما: في جانب العقيدة التي هي الأساس الأول للفضائل النفسية، والملكات الخلقية. والأخرى: في جانب العمل الذي هو الآثار للفضائل النفسية، والملكات الخلقية. ذلكم هو منهج الإسلام في تكوين الفرد الصالح بالنسبة لنفسه، وبالنسبة لمجتمعه.

١٤- ويأتي الفصل الرابع عشر: (الحقوق والواجبات بين الفرد والمجتمع).

وفيه يؤكد عدة حقائق ثابتة:

١- ليس من كرامة الإنسان أن يعيش لنفسه فقط، وإذا اعتنق إنسان هذه النزعة، فإنه يكون قد وضع نفسه موضع حيوان خسيس وهو بذلك ينحط عن المنزلة السامية التي خلق الإنسان لها، فإن الله تعالى لم يخلق الإنسان إلا ليكون خليفة في الأرض يثيرها ويعمرها ويكتشف أسرارها، ويتعاون مع أبناء جنسه على تأدية رسالة الخلافة فيها.

٢- ليس من كرامة الإنسان أيضًا أن يكون مجرد آلة في المجتمع، لا يفكر إلا له، ولا يعمل إلا لحسابه، ولا يعرف لنفسه ذاتية خاصة لها مطالب، ولها حقوق في أن تحيا حياة سعيدة وفي أن تتمتع، وفي أن تُرضي فطرتها الإنسانية،

والإسلام هو دين (الوسطية) والاعتدال، فهو لا يجنح إلى الطرف الأول فيؤيد أنانية الفرد وانكماشه وعيشه لنفسه ولا إلى الطرف الآخر فيؤيد إذلاله وتسخيره وإفنائه في مجتمعه، وإبطال شخصيته. وإلغاء كرامته. ولذلك نراه يشرع مناهج تحقق هذه الوسطية المعتدلة الهادفة، التي تتوازن فيها الحقوق والواجبات، فللفرد على المجتمع حقوق لابد من كفالتها وعليه للمجتمع واجبات في مقابل ذلك لابد من أدائها.

٣- وليس حق الإنسان في الحرية متعلقًا بحريته في نفسه فقط، وإنما هو حق شامل لحريته في تفكيره، ولحريته في عقيدته، ولحريته في مزاولة رسوم عبادته على الوجه الذي يتفق وما يدين الله به.

١٥- أما الفصل الخامس عشر: (المثل الكامل شخصية الرسول الأعظم).

فيتحدث فيه الشيخ المؤلف عن محمد المثل الكامل ﷺ في ناحية التعادل والتوازن بين ما حباه الله به من الصفات، ﴿**والله أعلم حيث يجعل رسالته**﴾ وهو الذي يقول مخاطبًا إياه: ﴿**وَإِنَّكَ لَعَلى خُلُقٍ عَظِيمٍ**﴾.

وينبئ على وجه التحقيق بأنه جعل منه أسوة وقدوة حسنة للمؤمنين إذ يقول: ﴿**لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيراً**﴾ (الأحزاب: ٢١).

ومن مظاهر هذا التعادل الخلقي اجتماع صفة الرحمة والرأفة فيه، مع صفة الهيبة وقوة الشخصية.

هذه هي شخصية رسول الإسلام، صلوات الله وسلامه عليه.

لين في غير ضعف، وشدة في غير عنف، ومهابة يزينها التواضع، وجلال يملأ صدور الرجال.

١٦- ويأتي الفصل السادس عشر والأخير: (عبدة الأهواء).

فيؤكد فيه الشيخ المؤلف: أن من المقاصد التي جاءت لها الشرائع، إشعار الناس بأنهم عبيد لله اختياراً، كما أنهم عبيد له اضطراراً.

ويبين أن النفوس البشرية نزاعة دائمًا إلى إتباع الهوى، فقد فطرت على ما تسميه «بالأنانية» فكل امرئ يريد أن يكون هو الفائز بأكبر قسط من متاع الدنيا، وكل امرئ يريد أن يكون هو الناجي من جميع آلامها وصعابها، وهو لهذا ينظر إلى الأشياء بعين نفسه، ويزن الضار والنافع بمقدار ما يعود عليه هو من النفع والضرر، وقلما يخرج الإنسان على هذه الطبيعة، وإن تحمل وتجمل وتهذب ولبس ثوب الإيثار، فإنه سيظل في أسر هذه الطبيعة ولو بعقله الباطن، وتصرفاته اللاشعورية؛ ولهذا لم يكن بد من أن يحال بين هذه الطبيعة السارية في جنس الإنسان، وإفساد هذا الكون؛ ولهذا كانت الشرائع، وكان أهم شيء فيها هو محاربة «الهوى» لأن الإنسان إذا تحرر من هواه، فقد تحرر من أخطر أنواع الشرك بالألوهية، وألقى بنفسه بين أحضان الإيمان الصحيح، والتوحيد الخالص، وكان عبداً لله اختياراً كما هو عبد لله اضطراراً.

وفي ختام الكتاب ألحقت به المحاضرة النفيسة للأستاذ «سيد محمد أبو المجد» عن «الملكات النفسية في القرآن الكريم» لارتباطها بموضوع الكتب ورجاء النفع بها، وهذه المحاضرة القيمة ألقيت في قاعة المحاضرات الأزهرية الكبرى، في الموسم الثقافي الثاني للمحاضرات العامة (الدورة الثانية) عام ١٣٧٩هـ- ١٩٦٠م.

وفيها بيان وافٍ وشافٍ عن جوانب النفس البشرية كما يصورها القرآن الكريم، فأبان المحاضر ما في النفس البشرية من مهاوٍ عميقة وسفوح متدرجة، وقمم باذخة، فمن أراد الوصول إلى الذروة العليا شمر عن ساعد الجد وواصل الكد والجهد، وقرر الحزم بالعزم والوجل بالأمل، واحتمل المشقات، ونبذ الشهوات، واستعان بفاطر

الأرض والسموات، فمن يخطب الحسناء لم يغلها المهر، وصدق رسول الله ﷺ حيث يقول: «من خاف أدلج ومن أدلج بلغ المنزل، ألا إن سلعة الله غالية، ألا إن سلعة الله الجنة»[1].

وصدق الله تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذِهِ تَذْكِرَةٌ فَمَن شَاءَ اتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِ سَبِيلاً﴾.

وبعد ....

إن ثمرة هذا الكتاب أنه يوجهنا إلى تربية النفوس على الإيمان بأن الله رقيب علينا، عليم بأفعالنا، وأنه معنا أينما كنا، يعيننا إذا صدقنا .. ويجيب سؤالنا إذا دعونا ... وينصرنا إذا جاهدنا ...

إلى هذه ندعو أنفسنا ونربي أجيالنا لتكون المثل والقدوة للناس جميعًا.

والله من وراء القصد، وهو ولي التوفيق

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين

تحريرًا في :
استراحة مسجد عمارات الشيخ
لوران الإسكندرية
عصر الجمعة الموافق
٢٨ جماد ثاني ١٤٢٨هـ

كتبه الفقير إلى عفو الله
أبو عبد الرحمن
أحمد مصطفى عبد العزيز فضلية

---

(١) الترمذي عن أبي هريرة ك/ صفة القيامة والرقائق والورع ب/ ما جاء في صفة أواني الحوض (٢٣٧٤).



الفصل الأول

مقدمة في بيان سر عظمة القرآن(١)

١- بسم الله الرحمن الرحيم. نحمده تعالى ونشكره على سابغ نعمته، وجزيل فضله، ونسأله أن يتولانا فيما نستقبل من أمرنا بما تولانا به فيما مضى من هداية وتوفيق وعون، ونصلي ونسلم على سيدنا محمد خاتم النبيين، وإمام المرسلين، وعلى آله وصحبه الطيبين الطاهرين، ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين.

٢- أما بعد، فهذه فصول متتابعة إن شاء الله تعالى، لبحث جديد يعتمد على مصدري الإسلام المباركين: كتاب الله تعالى، وسنة رسوله ﷺ، ولكنه مع ذلك ليس بحثًا في التفسير، ولا في الحديث، ولا في الفقه، ولا في غير ذلك من الأسماء التي صارت أعلامًا لبحوث خاصة معروفة بين أهل العلم، وإنما هو لون جديد من البحوث، أساسه بيان ما للقرآن الكريم والسنة المطهرة من أصالة ورسوخ قدم في شئون الحياة الإنسانية، مادية كانت أو معنوية، وأنهما نبعان فياضان بكل ما يصلح عليه البشر من علم ومبادئ وأخلاق، وبكل ما يهدي إلى سنن الاجتماع، وعبر التاريخ، والعوامل النفسية للأمم والأفراد، مما له أثر بالغ في حياة البشر، ومعونة قوية لمن كانوا في مراكز التوجيه والقيادة والتربية.

أن أصحاب هذه المراكز التوجيهية في حاجة قصوى إلى دراسة العوامل النفسية التي تحرك كلا من الفرد والجماعة في هذا الاتجاه أو ذاك، ولم يعد مما يستقيم عليه الأمر في هذا الشأن أن يقتصر أصحابه على مواهبهم في الذكاء والألمعية، ولا على غزارتهم العلمية في تحصيل الأحكام والمسائل، وتوجيه الآراء والأقوال، ولا على براعتهم في الحديث إلى الأفراد والجماعات، فإن ذلك من غير شك هو بعض الأدوات التي لابد منها، ولكنه ليس كلها، وليس أيضًا أهمها، فقد يتحقق النجاح

(١) منبر الإسلام - المحرم ١٣٧٨هـ..

لقائد أو موجه متوسط العلم، محدود المواهب في هذه النواحي، ولكنه خبير بالنفوس، ذو ملكة قوية في إدراك البواعث التي تبعث على شيء، والصوارف التي تصرف عن شيء، فيتهيأ له بذلك أن يتصرف في قليل العلم فيبدو كثيراً أو يفيد كثيراً، وأن ينتفع بأدنى المواهب، فيصل ما شاء، ويقطع ما شاء، ويبلغ – وهو المتوسط ذكاء وعلماً وقدرة – مالا يبلغه الذين يفوقونه.

٣– إلى هذا الجانب وما يشبهه تتجه دراستنا في هذه الفصول القرآنية الحديثية، وهدفنا الأكبر منها هو أن نصل إلى تربية ملكة جديدة من ملكاتنا، تجعلنا قادرين على استقبال آيات القرآن الكريم، وسنة رسول الله ﷺ الصحيحة، بروح الباحث الفاحص عن كل ما لها من دلالات علمية، ومن توجيهات عملية، ومن إيحاءات ومن إشارات إلى المبادئ والمثل والعبر، ولا نكتفي من القرآن والحديث بالكشف عن غريب الألفاظ، أو عن مشكل التراكيب، أو عن وجوه البلاغة والبيان، أو عن مصادر الأحكام الفقهية، أو الآراء الكلامية، أو نحو ذلك مما هو قطعاً من مباحث الناظرين فيهما، ومما له قطعاً أهميته في تكوين رجل القرآن والحديث والفقه والكلام والبلاغة والبيان، فإن هذا واد من أودية البحث، وما نريده واد آخر . . .

مقدمة في بيان سر عظمة القرآن:

من القضايا العلمية الإسلامية التي شغلت الناس قديماً وحديثاً قضية إعجاز القرآن.

وقد اختلفت في ذلك وجوه النظر، وألفت فيه شتى البحوث والكتب.

وليس من سبيلنا في هذه الدراسات أن نثبت قضية الإعجاز في وجوه المتعصبين على القرآن، ولا أن نجادل وجوه الإعجاز التي اختارها كل من المؤمنين به، فلذلك مواضعه من الكتب القديمة والحديثة، وهي كثيرة ميسورة.

والواقع أن الوجوه التي ذكرها العلماء في بيان إعجاز القرآن كلها حق:

فالذين يرجعون الإعجاز إلى القوة البيانية، والصولة البلاغية التي أذعن لها

العرب في عنفوان مجدهم الأدبي البياني، لهم وجهتهم في ذلك، ولنا معشر المتأخرين أن نأخذ من عجز العرب وهم يسمعون التحدي، ويطول عليهم الأمد في شأنه، دون أن يأتوا ولو بسورة قصيرة من مثله ... لنا أن نأخذ من هذا أنه بيان فوق مستوى البيان البشري، وأنه لذلك لابد أن يكون من عند الله.

والذين يرجعون الإعجاز إلى ما جاء في القرآن الكريم من الأخبار بالأنباء الماضية التي انطمست ولم يبق لها أثر، أو بالأنباء المستقبلة التي لم يكن هناك ما يدل على وقوعها، هم كذلك على حق، فإن القرآن الكريم قد قص على بني إسرائيل أكثر الذي هم فيه مختلفون، وأتى بأحسن القصص عن الأنبياء السابقين وأممهم، وأخبر عن أمور ستكون فكانت كما أخبر، وهذا يدل أيضًا على أنه ليس من كلام البشر، وإنما هو من لدن حكيم عليم.

حتى الذين يقولون إن إعجاز القرآن إنما كان بالصدفة، فهم معترفون بمبدأ الإعجاز، ولكنهم يتصورون هذا لوضوح القرآن وسهولته ويسر بيانه وموافقته للفطر السليمة، والعقول المستقيمة في كل ما جاء به، فكأنهم رأوه كتابًا يعبر عما في النفوس، وينطق بالحقائق في أجلى بيان، ولما رأوا أن الناس مع ذلك – أي مع كونه كتابًا موافقًا لفطرتهم، مصوغًا بمثل لغتهم وتعبيرهم – عاجزون عن الإتيان بمثله، ظنوا أنهم صرفوا عنه بقوة الله، وربما ظن بعضهم أنه انصراف الدهشة لقوة القرآن مع يسره، كما يقف الكاتب حائرًا مسلوبًا أمام ما نسميه «بالسهل الممتنع» فسهولته تغري به، وعظمته تدهش فتصرف عن تقليده، ومهما يكن من شيء فإن هؤلاء القائلين بأن الإعجاز إنما هو بالصدف أو بالصدفة مقرون بمبدأ الإعجاز، ومؤمنون بأن هذا في مقام التحدي كاف في إثبات أن القرآن العزيز إنما هو من عند الله وما هو بقول بشر، بدليل أن البشر لم يستطيعوا لأمر ما أن يأتوا ولو بسورة من مثله.

وهناك من يقول أن القرآن روح من عند الله، أخذاً من قوله تعالى. ﴿ **وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحاً مِّنْ أَمْرِنَا** ﴾ (الشورى: ٥٢) – وقد يحمل على هذا أيضًا الروح في قوله تعالى: ﴿ **وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُم**

مِّن الْعِلْمِ إِلاَّ قَلِيلاً ﴾ (الإسراء: ٨٥)، بدليل أن الكلام قبل هذه الآية وبعدها عن القرآن الكريم الذي أوحى الله به إلى محمد، فقبل هذه الآية يقول الله عز وجل: ﴿ وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَلاَ يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلاَّ خَسَاراً ﴾ (الإسراء: ٨٢)، وبعدها يقول الله عز وجل: ﴿ وَلَئِن شِئْنَا لَنَذْهَبَنَّ بِالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ ثُمَّ لاَ تَجِدُ لَكَ بِهِ عَلَيْنَا وَكِيلاً، إِلاَّ رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ إِنَّ فَضْلَهُ كَانَ عَلَيْكَ كَبِيراً، قُل لَّئِنِ اجْتَمَعَتِ الإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَن يَأْتُواْ بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لاَ يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيراً، وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِن كُلِّ مَثَلٍ فَأَبَى أَكْثَرُ النَّاسِ إِلاَّ كُفُوراً ﴾ (الإسراء: ٨٦ – ٨٩).

ويؤيد ذلك أيضًا قوله تعالى: ﴿ رَفِيعُ الدَّرَجَاتِ ذُو الْعَرْشِ يُلْقِي الرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِ عَلَى مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ لِيُنذِرَ يَوْمَ التَّلاقِ، يَوْمَ هُم بَارِزُونَ لا يَخْفَى عَلَى اللَّهِ مِنْهُمْ شَيْءٌ لِّمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ ﴾ (الشورى: ١٥).

فهذا كله يمكن أن يتخذ دليلاً على أن القرآن روح من أمر الله، فروحانيته هذه هي سر إعجازه عند القائل بهذا الرأي، «فهي تنفذ إلى سر سريرة الإنسان، وسويداء ضميره، وتستولى منها على أصل حياته، ومهب عواطفه واحساساته، وتخلقه خلقًا جديدًا، وتصوره بصورة لا يتخيلها، ولو قيلت له لما أدركها»[١].

وهذا الرأي في إعجاز القرآن يمكن أيضًا تقبله، فإن للقرآن قوة خارقة، وسلطانًا قويًا على النفوس، يدركهما من سمعه أو قرأه متأملاً وكان له قلب سليم: ﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرَى لِمَن كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ ﴾ (ق: ٣٧).

وقد يناقش هذا الرأي في بعض جوانبه أو عناصر الاستدلال عليه، ولكن سحر القرآن وقوته ليسا موضوع شك عند أحد من أصحاب العلم والذوق، وليسا في مستوى بشر معهود، ومن هنا يصلح ذلك كدليل أو مظهر من مظاهر إعجازه، وأنه كتاب إلهي لا كتاب بشري.

---

(١) الرأي للمرحوم الأستاذ محمد فريد وجدي ذكره في دائرة معارفه ص ٦٧٨ من المجلد السابع – مادة «قرأ»، وقد توسعنا في ذكر شواهده من القرآن الكريم.

كل هذه الآراء يمكن أن توجه، وأن تقبل كعناصر تتكون منها الحقيقة الكاملة في سر إعجاز القرآن الكريم.

ولكن هناك أمرًا هامًا نرى أنه أحق بأن يبرز في مظاهر إعجاز القرآن الكريم، وأن يعطي حقه من العناية: ذلك هو ما جاء به القرآن الكريم من المبادئ والشرائع والقصص واستخلاص العبر، والإرشاد إلى سنن الكون، والتوجيه إلى دراسة الأشياء، والإفادة من خواصها وما لها من دلالات، ونحو ذلك.

إن هذا هو صلب القرآن الكريم وعموده، إن البلاغة تسحر، والبيان يطرب، ولكن الحقائق والمثل والتوجيهات والعبر والثبات والرسوخ أمام الأحداث والتطورات العقلية، والأفكار المختلفة على تقلب الأجيال والأزمان والعقول، كل ذلك أكبر سحرًا، وأعظم أثرًا، وأفعل في نفوس الناس.

إن معجزة موسى كانت من جنس ما برع فيه قومه، فأبطلت العصا ما كان من سحر، وانتهى أمر هذه المعجزة فصارت تاريخًا يروى، وقل مثل ذلك في معجزة عيسى التي كانت تلائم البراعة في الطب، ولكن معجزة محمد قد تضمنت تحدي العرب في ميدانهم الأول حقًا وهو البيان والبلاغة وقوة التعبير، بيد أن الرسالة القرآنية لم تقف عند هذا الحد من الإعجاز، ولم ينته دور القرآن كما أنتهى دور العصا أو إحياء الموتى، أو شفاء الأكمه والأبرص، فتصبح قضية تاريخية لا يعلمها الحاضرون إلا عن طريق الرواية والسماع، فالقرآن قد كتب له الخلود، فيجب في حقه أن يكون خلوده راجعًا إلى أمر خالد على الأزمان يشهده الآخرون كما شهده الأولون، وتزيده القرون التي تتوالى وضوحًا وانكشافًا، وهذا لا يكفي فيه أن يكون القرآن ذا أسلوب فذ في البيان، ولا أن يتضمن بعض أخبار عن الماضين أو الآتين، ولا أن يكون روحًا يدرك تأثيره وسحره، دون أن يعرف سبب ذلك وسره، ولا أن يعرف أن الله صرف الأولين والآخرين عن الإتيان بمثله.

إن المعنى الذي يتفق وبقاء القرآن معجزة على الزمان، ويجعله آية خالدة يشترك في إدراك إعجازها بنو الإنسان في كل زمان ومكان هو موضوعات القرآن نفسها،

وما تضمنه من حقائق في كل ناحية لم يستطع العلم ولا العقل ولا الواقع أن يلحق بها عابًا، أو يفتح عليها من النقد السليم بابًا.

أننا نجد القرآن الكريم قد عرض لكثير من الموضوعات المختلفة، بين حقائق يذكرها عن الإلهيات والنبوات، وبين أصول للأحكام والتشريعات، وبين تقرير للسنن والسياسات والتوجيهات، وقصص السابقين، وعبر التاريخ، وما في العالم من كواكب ونبات وبحار ومخلوقات بعضها معلوم للناس، وبعضها غير معلوم لأنه غير مرئي، وما وراء هذا العالم من حقائق أخرى ستكون أو هي كائنة معدة لوقتها.

إلى غير ذلك من الموضوعات الكثيرة التي عرض لها القرآن، وتحدث عنها في دقة عجيبة، يكفيها أن العقول تتفاوت، والأزمان تتلاحق، والمعلومات تتغير وتتبدل، وهي هي لا يصيبها وهن، ولا يدركها خلل، ولا يتبين أنها كانت رجمًا بالغيب، أو اقتحامًا بدون علم، أو تصويرًا فاسدًا، أو أقوالاً خطابية، أو دراسات مضطربة أو ناقصة.

أليس في كل ذلك آية كبرى على أن هذا القرآن إنما هو بيان إلهي للناس، وأن الرسول ﷺ الذي جاء به صادق في دعواه أنه من عند الله ؟

بلى !! وتلك هي المعجزة الخالدة، التي يعرفها الناس جميعًا في كل زمان ومكان: أعرفها أنا، وتعرفها أنت، ويعرفها العجمي، ويعرفها الشرق والغرب والشمال والجنوب، والأول والآخر، حيثما وجد إنسان، وحيثما وجد عقل، وحيثما وجد علم، وحيثما وجد اكتشاف، وحيثما درست نفوس وعرفت طبائع، وأدركت سنن: ﴿ **سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ** ﴾ (فصلت: ٥٣).

فمن هذه الآفاق إذن يجب أن يلتمس الإيمان بإعجاز القرآن . . .

الفصل الثاني
الإنسان في القرآن

ذكرت كلمة «الإنسان» في القرآن الكريم نحو سبعين مرة، مثل قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الإِنسَانُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ، الَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّاكَ فَعَدَلَكَ، فِي أَيِّ صُورَةٍ مَّا شَاءَ رَكَّبَكَ﴾[1]، وقوله تعالى: ﴿فَأَمَّا الإِنسَانُ إِذَا مَا ابْتَلاهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَكْرَمَنِ، وَأَمَّا إِذَا مَا ابْتَلاهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَهَانَنِ﴾[2]، وقوله تعالى: ﴿كَلا إِنَّ الإِنسَانَ لَيَطْغَى، أَن رَّآهُ اسْتَغْنَى﴾[3]، وقوله تعالى: ﴿وَإِذَا أَنْعَمْنَا عَلَى الإِنسَانِ أَعْرَضَ وَنَأَى بِجَانِبِهِ وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ كَانَ يَؤُوساً﴾[4] إلى غير ذلك من المواضع التي نرى في كثير منها تقريراً لصفات هذا المخلوق، وتنبيهاً على ما وهب من ملكات، وماله من صفات طبيعية فطر عليها، وكان لها آثارها في تصرفه وعمله وسعيه واعتقاده.

وإذا دخلنا في الإحصاء حديث القرآن عن هذا المخلوق بعنوان آخر غير عنوان «الإنسان» ككلمة «الناس» أو «الإناس» أو «بني آدم» مثلاً، فإن عدد المواضع التي ذكر فيها يربو على المئات، مثل قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوباً وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ﴾[5]، وقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن تُرَابٍ﴾[6]، وقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُواْ رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ

---

(١) الآية ٦ – ٨ من سورة الانفطار.

(٢) الآية ١٠، ١٦ من سورة الفجر.

(٣) الآية ٦، ٧ من سورة العلق.

(٤) الآية ٨٣ من سورة الإسراء.

(٥) الآية ١٣ من سورة الحجرات.

(٦) الآية ٥ من سورة الحج.

من قَبْلِكُمْ ﴾[١]، وقوله تعالى: ﴿ يَا بَنِي آدَمَ لاَ يَفْتِنَنَّكُمُ الشَّيْطَانُ كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكُم مِّنَ الْجَنَّةِ ﴾[٢]، وقوله تعالى: ﴿ قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ ﴾[٣] إلى غير ذلك.

ثم إذا أضفنا إلى تلك المواضع ما ورد في القرآن الكريم من حديث عن الناس بأوصاف «المؤمنين» أو «الكافرين» أو «المنافقين» أو نحو ذلك، وما جاء من قصص عن الماضين من «قوم نوح»، و «قوم هود» و«قوم صالح» ومن الأنبياء والرسل، ومن الملوك والمسلطين، والتابعين والمتبوعين إلى غير ذلك فإننا نستطيع أن نقول: إن آيات القرآن الكريم لا تكاد تخلو آية منها عن ذكر شيء من ذلك.

والخلاصة أن القرآن الكريم كله موجه إلى الإنسان، وأن هدايته وأحكامه وقصصه وعبره ومثله ومناشداته ومحاوراته وبراهينه ودراساته، كل ذلك مسوق لهذا المخلوق، منزل لمصلحته، ميسر له، مقصود به الأخذ بيده إلى طريق الفلاح في الدنيا والآخرة.

وقد يرد في القرآن بعض آيات عن غير الإنسان، أو موجهة إلى غير الإنسان، كالحديث عن الجن في سورة الجن وغيرها، وهي مواضع قليلة بجانب الحديث عن الإنسان منفرداً أو مجتمعاً، ثم هي في أكثر الأمر مسوقة على أن غير الإنس فيها تابعون للإنس، مثل قوله تعالى: ﴿ يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالإِنسِ إِنِ اسْتَطَعْتُمْ أَن تَنفُذُوا مِنْ أَقْطَارِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ فَانفُذُوا لا تَنفُذُونَ إِلاَّ بِسُلْطَانٍ ﴾[٤]، وقوله تعالى: ﴿ قُل لَّئِنِ اجْتَمَعَتِ الإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَن يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لاَ يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيراً ﴾[٥]، إن كلتا الآيتين في مقام التحدي لقوة الجنسين، وقدم في الآية الأولى ذكر الجن على الإنس جريًا على ما

---

(١) الآية ٢١ من سورة البقرة.

(٢) الآية ٢٧ من سورة الأعراف.

(٣) الآية ٦٠ من سورة البقرة.

(٤) الآية ٢٣ من سورة الرحمن.

(٥) الآية ٨٨ من سورة الإسراء.

يجيء في النفوس من أن الجن أقدر على مالا يقدر عليه الإنس، والحقيقة أن المعنى إنما هو للإنس، إذ هم الممكنون من هذا الكون، المسخرة لهم سماؤه وأرضه، على حين أن الجن لم يمكنوا هذا التمكين، ولم يطوع لهم من سنن الكائنات ما طوع للإنسان. أما الآية الثانية فقدم فيها ذكر الإنس على الجن لأن المقام مقام تحد بالقول، والإتيان بمثل القرآن في بيانه، وذلك هو مجال الإنس، وما الجن فيه إلا تابعون. وإنما ذكروا ليبلغ التحدي مداه.

....

لاشك أن هذه عناية عظمى بشأن هذا المخلوق، الذي هو الإنسان، وأي عناية أعظم من أن تنزل من الله تعالى الذي هو الرب الخالق المستغني، كتب على الناس الذين هم عبيد مربوبون مخلوقون محتاجون؟. إن الله تعالى يخاطب عباده في كثير من الآيات، مبينًا لهم مظاهر ربوبيته، ووجود نعمته، فيقول لهم مثلاً: **﴿ وَالأَنْعَامَ خَلَقَهَا لَكُمْ ﴾**(١)، **﴿ وَهُوَ الَّذي سَخَّرَ الْبَحْرَ لتَأْكُلُواْ منْهُ لَحْماً طَرِيّاً ﴾**(٢)، **﴿ هُوَ الَّذي أَنزلَ منَ السَّمَاء مَاءً لَّكُم مِّنْهُ شَرَابٌ وَمنْهُ شَجَرٌ فيه تُسيمُونَ ﴾**(٣)، **﴿ كُلُوا وَارْعَوْا أَنْعَامَكُمْ ﴾**(٤)، إلى غير ذلك من توجيه الخطاب إلى الناس، وهناك مناشدات إلهية مؤثرة مثل قوله تعالى: **﴿ قُلْ يَا عبَاديَ الَّذينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنفُسهمْ لا تَقْنَطُوا من رَّحْمَة اللَّه ﴾**(٥)، **﴿ إِنَّ هَذه أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُون ﴾**(٦)، وغير ذلك مما يجعلنا نقف موقف التعجب والإعجاب من هذا الكرم الإلهي، والرحمة العظمى التي جعلت الغني يناشد المحتاج، والقادر القوي يناشد العاجز الضعيف، وما ذلك إلا لأن هذا المخلوق قد أحيط من الخالق بمختلف ألوان العناية في خلقه وتربيته، وإعداده وإمداده.

---

(١) الآية ٥ من سورة النحل.

(٢) الآية ١٤ من سورة النحل.

(٣) الآية ١٠ من سورة النحل.

(٤) الآية ٥٤ من سورة طه.

(٥) الآية ٥٣ من سورة الزمر.

(٦) الآية ٩٢ من سورة الأنبياء.

وإني لأقف أحيانًا موقف الاعتزاز بإنسانيتي، إذ أشعر بأنني واحد من هذا الجنس الذي كرم هذا التكريم، وخوطب هذا الخطاب، ونوشد هذه المناشدة من الله العلي الكبير.

والأمر الذي أرمي إلى أن يشاركني فيه القارئ هو الإيمان بهذا الإنسان، الإيمان بقيمته الكبرى كما تبدو من عناية الله به، وتكريمه إياه، الإيمان بأنه ميسر لرسالة كبرى خلقه الله لها، وزوده بأدواتها، وأن الذين يظنون أن الإنسان مخلوق تافه، أو أنه يصبح بالعصيان والتمرد في بعض أوقاته أو أحواله مخلوقًا تافهًا، إنما يصدرون عن فكرة تغفل عن القرآن وتوجيهات القرآن.

....

وازن القرآن الكريم بين الإنسان وبين السموات والأرض والجبال، في إحدى آياته، وهي قوله تعالى: ﴿ **إِنَّا عَرَضْنَا الأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الإِنسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُوماً جَهُولاً** ﴾(١).

كما وازن بين الإنسان والملائكة في قوله جل شأنه: ﴿ **وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُواْ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لاَ تَعْلَمُونَ، وَعَلَّمَ آدَمَ الأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلائِكَةِ فَقَالَ أَنبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلاءِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ، قَالُواْ سُبْحَانَكَ لاَ عِلْمَ لَنَا إِلاَّ مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ، قَالَ يَا آدَمُ أَنبِئْهُم بِأَسْمَآئِهِمْ فَلَمَّا أَنبَأَهُمْ بِأَسْمَآئِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ** ﴾(٢).

ومن سبيلنا أن نتحدث عن كل من هاتين الموازنتين لأنهما موازنتان إلهيتان عادلتان، ومن شأنهما أن تحدد لنا مركز هذا المخلوق في هذا العالم بين القوى المسخرة سواء أكانت عاقلة فاهمة كالملائكة، أو غير عاقلة ولا فاهمة كالسموات

(١) الآية ٧٢ من سورة الأحزاب.

(٢) الآيات من ٣٠ إلى ٣٣ من سورة البقرة.

والأرض والجبال .

فالآية الأولى تذكر أن هناك « أمانة » وأن الله عرض هذه الأمانة على السموات والأرض والجبال، فَأَبَيْنَ أن يحملنها وأشفقن منها، أي أنه كان هناك عرض من الله، وإباء من هذه الثلاثة مقترن أو منبعث عن إشفاق وخوف، وأما الإنسان فإنها عرضت عليه أيضًا فكان موقفه غير موقف السموات والأرض والجبال، إذ قبل الأمانة التي عرضت عليه وحملها، والسر في قبوله إياها وحمله لها أنه كان ظلومًا جهولاً .

ماذا يقول المفسرون هنا؟ إنهم يهيمون في أودية الروايات كعادتهم في كثير من الأحيان، فيقولون نقلاً عن هذا أو ذاك من الرواة : أن الله تعالى « لما خلق الأمانة مثلها صخرة ثم وضعها حيث شاء، ثم دعا لها السموات والأرض والجبال ليحملنها، وقال لهن : إن هذه الأمانة، لها ثواب وعليها عقاب، قالوا : يا رب لا طاقة لنا بها، وأقبل الإنسان من قبل أن يدعى فقال للسموات والأرض : ما وقوفكم؟ قالوا : دعانا ربنا أن نحمل هذه فأشفقنا منها ولم نطقها، فحركها بيده وقال : والله لو شئت أن أحملها لحملتها، فحملها حتى بلغ بها حقويه (أي خاصرتيه) ثم وضعها، وقال : والله لو شئت أن ازداد لازددت، قالوا : دونك، فحملها حتى وضعها على عاتقه، فلما أهوى ليضعها قالوا : مكانك إن هذه الأمانة، ولها ثواب وعليها عقاب، وأمرنا ربنا أن نحملها فأشفقنا منها، وحملتها أنت من غير أن تدعى لها فهي في عنقك وفي أعناق ذريتك إلى يوم القيامة، إنك كنت ظلومًا جهولاً »، « أو هي ائتمان آدم ابنه قابيل على ولده وأهله وخيانته إياه في قتل أخيه، وذلك أن الله تعالى قال لآدم : هل تعلم أن لي بيتًا في الأرض؟ قال : اللهم لا، قال : فإن لي بيتًا بمكة فأته، فقال للسماء : احفظي ولدي بالأمانة، فأبت، وقال للأرض احفظي ولدي بالأمانة فأبت، وقال للجبال كذلك فأبت، فقال لقابيل : احفظ ولدي بالأمانة، فقال : نعم، تذهب وترجع فتجد ولدك كما يسرك، فرجع فوجده قد قتل أخاه، فذلك قوله تعالى : ﴿ **إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى ...** ﴾ الآية »، « أو هي التكاليف وتقلد الشرائع، فإن هذا أمر تعجز عنه السموات

والأرض والجبال، وقد كلفه الإنسان، وهو ظلوم جهول»، «أو هي أمانات الأموال كالودائع وغيرها، أو الصلاة، أو غسل الجنابة» إلى غير ذلك من الأقوال التي نراها في كتب التفسير المختلفة.

ويلاحظ أن تلك الأقوال كلها تأخذ الأمر في هذه الموازنة على حرفيته، وتجرى الكلام على الحقيقة صرفًا، فتقرر أن هناك عرضًا وحوارًا وإباء وقبولاً وإشفاقًا وحملاً، وكل ذلك على وجه الحقيقة.

«وقال قوم: إن الآية من المجاز، أي أننا إذا قايسنا ثقل الأمانة بقوة السموات والأرض والجبال، رأينا أنها لا تطيقها، وأنها لو تكلمت لأبت وأشفقت، فعبر عن هذا المعنى بقوله: ﴿**إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ** ...﴾ الآية، وهذا كما تقول: عرضت الحمل على البعير فأباه، وأنت تريد قايست قوته بثقل الحمل، فرأيت أنها تقصر عنه»[1].

هذا هو الشأن في آية الأمانة كما نراه في كتب التفسير، ولاشك أن القارئ الحصيف لا يقتنع بشيء من ذلك، ويظل في نفسه شيء بل أشياء: فله أن يقول للذين يأخذون الأمر مأخذ الحقيقة لا مأخذ التمثيل والمجاز.

كيف تم هذا العرض على السموات والأرض والجبال حقيقة وهي لا تعقل ؟

وماذا كانت الغاية من هذا العرض ؟

وكيف عرضت الفرائض والتكاليف على هذه الأشياء ؟

وهل معنى ذلك أن طلب السموات والأرض والجبال أن تصلي أو تزكي مثلاً ؟

وإذا قيل إن تكاليف هذه الأشياء بما يناسبها، وتكاليف الإنسان نوع آخر يناسبه، فلم إذن أبت السموات والأرض والجبال ما يناسبها ؟

وما هي هذه التكاليف التي أبتها وأشفقت منها ؟ وأين في الكلام ما يدل على

---

(١) ص ٢٥٥ ج ١٤ من تفسير القرطبي، وكل ما ذكرناه من الأقوال في شرح هذه الآية فهو من المرجع، وكتب التفسير الأخرى لا تكاد تخالفه.

أن «الأمانة» بالنسبة للسموات والأرض والجبال غير «الأمانة» بالنسبة للإنسان ؟

ثم أين في الآية ما يدل على أن الأمانة عرضت على الإنسان كما عرضت على غيره مع أن كل ما في الآية أن الإنسان حملها فلم يقل الله تعالى: وعرضناها على الإنسان فحملها، إلى غير ذلك من الأسئلة الكثيرة التي ترد على كل تفسير من هذه التفسيرات الآخذة بالحقيقة الحرفية.

وللقارئ أن يقول للذين يأخذون الأمر مأخذ التمثيل والمجاز: ما هي الأمانة المرادة في هذا التعبير ؟ وما الذي قامت عليه الموازنة بين السموات والأرض والجبال، وبين الإنسان ؟

أهو التكاليف على معنى أنها لو عرضت على هذه الأشياء لما أطاقتها، على حين أن الإنسان أطاقها وحملها ؟

وكيف يوازن بين شيئين مختلفين تكوينًا واستعدادًا ؟ وما فائدة هذه الموازنة التي يمكن أن تعود إلى قارئ هذا الكتاب المبين ؟

وإلى أي نوع من أنواع الهداية القرآنية يرجع ذلك ؟

كل هذا يرد على تلك التفاسير، فعلينا إذن أن ننظر نظرة أخرى في شأن هذه الموازنة، والله المستعان . . .

الفصل الثالث

القرآن - الإنسان - الأمانة

لخصنا في الفصل السابق ما للمفسرين من آراء منبثقة عن رواية أو عن اجتهاد، في معنى قوله تعالى: ﴿إِنَّا عَرَضْنَا الأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الإِنسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُوماً جَهُولاً﴾[1]، وبدا من كلامنا أننا لا نستريح إلى ما أوردناه من تلك الآراء، لما يرد عليها من أسئلة واعتراضات ليست لها أجوبة مقنعة، والآن نذكر رأينا في هذه الآية، وبالله التوفيق:

يأتي القرآن الكريم في بعض الأحيان بالحقائق التي يريد تقريبها للناس مصوراً الأمر فيها بصورة حديث فيه أخذ ورد ومخاطبة ومقاولة، وتلك سنة مألوفة من سنن البلاغة العربية، فنراهم مثلاً يقولون: «قال الفقر إني ذاهب إلى بلد كذا، فقال له الكفر: خذني معك». فالفقر والكفر ليسا بناطقين يتكلمان، ولكن الغرض من هذا الكلام إفادة أن الفقر والكفر بينهما نوع من الارتباط والتلازم أساسه أن الفقر يبعث على الجزع، والجزع يجر إلى الكفر، وقد أخرج هذا المعنى بهذا الأسلوب ليكون على المعهود من شئون المتصاحبين المتلازمين إذا أراد أحدهما أن يسير مسيراً ما تعلق به الآخر وسار معه، فهي صورة تمثيلية في الأقوال، كما أن هناك صوراً في تمثيل الأفعال مثل قولهم فيمن يتردد ولا يثبت على رأي واحد: «أراك تقدم رِجلاً وتؤخر أخرى» فليس هنا رِجل تقدم، أو تؤخر فعلاً، ولكنه تمثيل لحالة من يعزم على الشيء فيأخذ فيه، ثم يرجع عن عزمه فيضرب عنه، بحال من يريد أن يتقدم فيقدم رِجلاً ثم يبدو له أن يحجم فيؤخرها تارة أخرى.

---

(١) الآية ٧٢ من سورة الأحزاب.

وفي القرآن الكريم من ذلك أمثلة صالحة للاستشهاد، منها قوله تعالى: ﴿ ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعاً أَوْ كَرْهاً قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ ﴾(١). فمن المعروف أن الأمر هنا أمر تكويني لا قولي، ولكنه عبر عنه بأسلوب «المقاولة» – قال لها وللارض، وقالتا – ليعطي الصورة المعهودة في التجاوب بين المأمور المطيع، والآمر المطاع، وعلى هذا المعنى يفسر الحذاق قوله تعالى: ﴿ إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَن نَّقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ ﴾(٢)، و﴿ إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُن فَيَكُونُ ﴾(٣). وأمثال ذلك، فليس المراد – والله أعلم – أن الله تعالى حين يريد خلق شيء يقول هذا القول كلامًا، ولكن هو تصوير كما بينا للتجاوب المعهود السريع بين آمر مطاع ومأمور مطيع، وهو تعبير يفيد معنى السرعة أكثر مما لو قيل مثلاً: «إذا أردنا شيء فعلناه»، لأن الفعل فيما يعهده الناس معالجة تحتاج إلى وقت، أما ﴿ كُن فَيَكُونُ ﴾ فهي صورة بارعة لتقريب معنى سرعة التلبية على أحسن وجه.

وهذا يكشف لنا الوجه الأمثل لتفسير مثل قوله تعالى في شأن عيسى: ﴿ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ اسْمُهُ الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ ﴾(٤). وقوله عز وجل في معرض بيان عظمته وعدم انتهاء مظاهر تصريفه وقدرته: ﴿ وَلَوْ أَنَّمَا فِي الْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَامٌ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِن بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَّا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾(٥). فقد اختير لفظ «الكلمة» و«الكلمات» لإفادة معنى اليسر في حقه تعالى، وأن تصاريف فعله وسرعة نفوذ مشيئته هي أشبه بكلمة المتكلم التي لا تكلف أكثر من النطق بها، والله أعلى وأجل، وتلك الأمثال يضربها للناس.

---

(١) الآية ١١ من سورة فصلت.

(٢) الآية ٤٠ من سورة النحل.

(٣) الآية ٥٩ من سورة آل عمران.

(٤) الآية ٤٥ من سورة آل عمران.

(٥) الآية ٢٧ من سورة لقمان.

بعد هذا يمكننا أن نفهم العرض في قوله تعالى: ﴿إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ﴾ (الأحزاب: ٧٢)، على أنه تمثيل وتقريب لحالة تكوينية، فليس هناك عرض حقيقي من الله وإباء وإشفاق حقيقيان من هذه المخلوقات، وإنما هو أسلوب جاء على ما عهده العرب في كلامهم.

وإلى هنا نجد في كلام المفسرين ما يؤيد هذا الرأي، وإن خلطوا به مالا نقره:

فالقرطبي ينقل في تفسيره عن القفال وغيره «أن العرض في هذه الآية ضرب مثل، أي أن السموات والأرض على كبر أجرامها لو كانت بحيث يجوز تكليفها لثقل عليها تقلد الشرائع»، ثم يقول: «وقال قوم: إن الآية من المجاز أي أننا إذا قايسنا ثقل الأمانة بقوة السموات والأرض والجبال، رأينا أنها لا تطيقها، وأنها لو تكلمت لأبت وأشفقت، فعبر عن هذا المعنى بقوله: ﴿إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ﴾ الآية، وهذا كما تقول: عرضت الحمل على البعير فأباه، وأنت تريد: قايست قوته بثقل الحمل فرأيتها تقصر عنه»[1].

ونحن نقر من هذا أن الأمر فيه ضرب مثل، وأن قوله تعالى: ﴿عَرَضْنَا - فَأَبَيْنَ - وَأَشْفَقْنَ﴾ من باب قول القائل: «عرضت الحمل على البعير فأباه» أي قايست قوته بثقل الحمل فرأيتها تقصر عنه، نقر هذا، ولكن لا نقر أن الأمانة التي صور عرضها بهذا الأسلوب هي التكاليف والشرائع، كما سنوضح فيما بعد.

ويقول الزمخشري في الكشاف عند تفسيره لآية الأمانة هذه: «... ونحو هذا من الكلام كثير في لسان العرب، وما جاء القرآن إلا على طرقهم وأساليبهم، من ذلك قولهم: لو قيل للشحم أين تذهب لقال أسوي العوج، وكم وكم لهم من أمثال على ألسنة البهائم والجمادات، وتصور مقولة الشحم محال، ولكن الغرض أن السمن في الحيوان مما يحسن قبيحه، كما أن العجف مما يقبح حسنه، فصور أثر السمن فيه تصويراً هو أوقع في نفس السامع، وهي به آنس، وله أقبل، وعلى

(١) ص ٢٥٦ ج ١٤ من تفسير القرطبي طبع دار الكتب المصرية.

حقيقته أوقف، وكذلك تصوير عظم الأمانة وصعوبة أمرها، وثقل محملها والوفاء بها»[1].

وهذا كلام جيد، إلا ما جاء في آخره مما يفيد أن الزمخشري يفهم الأمانة على أنها تكليف فيه ثقل، وفي حمله صعوبة، وهو غير واضح كما سيأتي.

وكل ما نريده الآن قبل أن نتقل إلى بيان المراد من الأمانة، هو أن يلتفت القارئ إلى هذا المعنى الذي ذكرناه، وهو أن العرض في الآية ليس عرضًا حقيقيًا، وإنما يراد به تصوير معنى عدم التوافق بين السموات والأرض والجبال، وبين الأمانة، أي أن هذه الأشياء بحسب تكوينها وخلقتها ليس بينها وبين الأمانة توافق وترابط وتلاؤم، على العكس من الإنسان الذي هو بحسب خلقه وطبيعة تكوينه وما منح من المواهب الخاصة حامل للأمانة فعلاً لأنه ملائم لها، مكون على صفات توافق حملها.

هذا هو المعنى الذي أريد من القارئ أن يدركه ويتابعني عليه حتى آتي له بتفسير الأمانة نفسها، وهو معنى يتفق في المبدأ مع الأمثلة التي ذكرناها وذكرها المفسرون من كلام العرب ومن القرآن، ولا ينبغي أن يجفل منه القارئ بحجة أن فيه إخراجًا للفظ (**عَرَضْنَا**) عن معناه الحقيقي، فإن هذا سائغ وله نظائره في الكلام وفي القرآن، وما أنزل القرآن إلا بلسان عربي مبين.

....

والآن ما المراد من الأمانة في الآية ؟

إن كلمة «الأمانة» تستعمل تارة بمعنى الخلق الذي يكون به الإنسان وفيًا حفيظًا على ما أؤتمن عليه، فيقال: فلان فيه أمانة، أي هو أمين غير خائن، وتستعمل تارة أخرى بمعنى الشيء المؤتمن عليه، فالمال المودع عندك هو أمانة لديك، وزوجتك عندك أمانة، وولدك أمانة وهكذا، وعلى هذا المعنى الثاني في قوله تعالى: ﴿ **إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّواْ الأَمَانَاتِ إِلَى أَهْلِهَا** ﴾[2].

﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لاَ تَخُونُواْ اللَّهَ وَالرَّسُولَ وَتَخُونُواْ أَمَانَاتِكُمْ وَأَنتُمْ**

(1) ص ٢٤٩ ج ٣ من الكشاف.

(2) الآية ٥٨ من سورة النساء.

﴿تَعْلَمُونَ﴾[1].

وعلى كلا الأمرين يلاحظ في معنى الأمانة أن يكون صاحبها قادراً على أن يؤديها وألا يؤديها بمحض إرادته، فالدين الموثق بالشهادة أو بالكتابة ليس أمانة عند المدين، لأنه بالتوثيق أو الكتابة صار غير مؤتمن، وبتعبير آخر نقول: أن الأمين على الشيء هو الذي أعطى هذا الشيء دون أي توثيق عليه باستشهاد أو كتابة أو نحو ذلك، وإنما وكل إلى أمانته، واعتمد على مجرد الثقة فيه، وحينئذ يكون ضميره هو الذي يحكم في شأن هذه الوديعة إما بحفظها وأدائها إن كان ضميراً حياً، وإما باغتيالها وهو آمن إن كان ضميراً ميتاً أو مريضاً.

فأنت لا توصف بالأمانة إلا إذا كان لك القدرة على أن تحفظ وتضيع، أما الذي لا يستطيع إلا أن يحفظ، فلا يوصف بكونه أميناً، كما أن الذي لا يستطيع إلا أن يضيع، لا يوصف بعدم الأمانة، فالمدار على وجود حالة الاختيار في هذا وذاك، وبدون هذا الاختيار لا يوصف الإنسان بالأمانة سلباً أو إيجاباً.

إذا تقرر هذا فإننا إذا وازنا بين الإنسان وبين السموات والأرض والجبال، وجدنا الإنسان هو القادر بحسب تكوينه ومواهب الله التي منحها، على أن يتدبر العواقب، ويتخذ في كل شيء قراراً بأن يفعل أو يترك نتيجة لتقدير هذه العواقب، فهو قادر مختار مفكر متدبر يزن الأمور، ويقلبها ثم يتخذ فيها قراره، ونريد — طبعاً — أن هذا هو شأنه وما خلق عليه، ولا يتنافى هذا مع كونه قد يختار الشر، وهو يعلم سوء عاقبته، أو قد يندفع، وما كان له أن يندفع دون ترو وتفكر.

هذا شأن الإنسان، وهذا هو ما اصطلح الناس على تسميته بالشعور بالمسئولية وهو لا يوجد في السموات والأرض والجبال، لأنها مسخرة بسنة الله تعالى إلى ما خلقت له، فلا تملك أن تحيد عنه، فليس للشمس خيار في أداء وظيفتها، وإنما هي محكومة بقانون لا تنفك عنه، ولا إرادة لها ولا اختيار، وقل مثل ذلك في الأرض والجبال، فكل وظائفها لا إرادية، وإذن فليس من شأنها أن تحمل مسئولية، لأن ركن المسئولية هو الاختيار وهي ليست مختارة، فالآية توازن بين الإنسان، وهذه الأشياء ليعلم أن الإنسان هو المنفرد من بينها بحمل المسئولية، والشعور بالتبعية،

---

(١) الآية ٢٧ من سورة الأنفال.

وبذلك يتحدد مركزه وقيمته في الكون.

فالمراد من التعبير بعرض الأمانة على السموات والأرض والجبال، وإبائها أن تحملها، وإشفاقها منها، تقرير أنها لا تتفق وطبيعتها وما خلقت عليه، فهي تأباها أي تنافرها، ومعنى إشفاقها منها أنها لو كانت قد خلقت على نحو ما خلق عليه الإنسان من اختيار وائتمان، لكان هناك خوف وإشفاق على مصير العالم، فلنتصور أن الشمس مثلاً خلقت على نحو يجعلها مختارة في أداء وظيفتها مؤتمنة على ذلك، فهل يؤمن بقاء الكون إلى أجله المقدر له مع هذا الاختيار الذي فيه احتمال أن تختار التمرد والخروج على أمر الله كما يفعل الإنسان أحيانًا ؟

لذلك كان من الحكمة أن خلق الله السموات والأرض والجبال على ما خلقها عليه خاضعة لنواميس ليس لها اختيار في تطبيقها والسير عليها، أما الإنسان فإن خروجه على مقتضى النظرة السليمة في كثير من الأحيان لا يؤدي إلى فساد كلي كوني، وإنما يؤدي إلى فساد جزئي أو فردي فلا إشفاق منه، ولا خوف من حمله الأمانة.

وقد ذيلت الآية بقوله تعالى عن الإنسان: ﴿ **إِنَّهُ كَانَ ظَلُوماً جَهُولاً** ﴾ لبيان السر في صلاحيته للمسئولية وعدم صلاحية السموات والأرض والجبال لها، فهو الذي من شأنه أن يظلم ويتعدى حدوده، ويجهل فيخرج عن مقتضى النظر والتفكير السليم انسياقًا مع الشهوة أو الغضب، فهذا المعنى مركب فيه، وليس في هذه الأجرام بحسب تكوينها، ووجوده في الإنسان من دونها يجعله هو الحامل للأمانة من دونها، لأن عناصر الائتمان إنما تتكون من وجود النوازع مع القدرة على الشيء وضده.

والخلاصة: أن هذه الآية الكريمة قد عقدت موازنة بين الإنسان وهذه الموجودات، غايتها لفت النظر إلى ما اختص به الإنسان من طبيعة ملائمة لحمله «المسئولية» المعبر عنها بالأمانة، لأن أمرها موكول إليه يزنه بمحض تفكيره وتأمله ونظره، ولأنه يملك عناصر الاختيار التي هي أساس في الائتمان، مع قيام الدوافع والنوازع، أي الأغراض والشهوات.

الفصل الرابع
تهيئة الإنسان لأداء الأمانة

﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلاَئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُواْ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاء وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لاَ تَعْلَمُونَ، وَعَلَّمَ آدَمَ الأَسْمَاء كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلاَئِكَةِ فَقَالَ أَنبِئُونِي بِأَسْمَاء هَؤُلاء إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ، قَالُواْ سُبْحَانَكَ لاَ عِلْمَ لَنَا إِلاَّ مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ، قَالَ يَا آدَمُ أَنبِئْهُم بِأَسْمَآئِهِمْ فَلَمَّا أَنبَأَهُمْ بِأَسْمَآئِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ ﴾(١).

من اطلع على كتب التفسير وغيرها من الكتب التي عرضت لهذه الآيات من سورة البقرة، عرف أن للعلماء فيها طريقتين:

الطريقة الأولى: طريقة الجمهور، وهم الذين حملوا الكلام على الحقيقة، ففسروا الآيات على أن هناك محاورة وقعت فعلاً بين الله وملائكته، وجعلوا يبينون في كل موضع سر هذا القول أو ذاك من الأقوال التي أسندت إلى الله تعالى، أو إلى ملائكته، كما جعلوا يؤولون أو يخرجون في معاني هذه الأقوال حينما يبدو في بعضها ما يصادم أصلاً مقرراً في صفات الله العليم الحكيم الذي لا يسأل عما يفعل، أو في صفات ملائكته الذين ﴿ لا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُم بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ ﴾(٢).

وأصحاب هذه الطريقة يختلفون في التفصيلات اختلافًا كبيرًا، فمنهم من يرى أن قوله تعالى للملائكة: ﴿ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً ﴾(٣) كان على سبيل الإخبار، ومنهم من يقول: كان على سبيل الاستشارة، وقد روى هذا عن السدي

---
(١) الآيات ٣٠ – ٣٣ من سورة البقرة.
(٢) الآية ٢٧ من سورة الأنبياء.
(٣) البقرة: ٣٠.

وعن قتادة، ثم منهم من روى أن المراد بالأرض مكة، ومنهم من ضعف هذه الرواية واستظهر أن المراد بالأرض أعم من ذلك، ثم منهم من قال إن معنى الكلام: إني جاعل في الأرض خليفة مني يخلفني في الحكم بالعدل بين خلقي وهو آدم ومن قام مقامه في طاعة الله، ومنهم من قال: إن الخليفة هو النوع الإنساني، ومعنى خلافته سكناه الأرض، وكما اختلفوا في هذا الموضع اختلفوا في المراد بتعليم آدم الأسماء كلها، فمنهم من قال: أسماء النجوم، ومنهم من قال: أسماء ذريته كلهم وأسماء الملائكة، ومنهم من قال: المراد تعليمه جميع اللغات التي نطق بها فيما بعد ذريته، وفرعوا على ذلك البحث المشهور: هل اللغات توقيف أو اصطلاح ؟ إلى غير ذلك من مواضع الخلاف وصورها[1].

أما الطريقة الأخرى: فهي طريقة الأقلين من العلماء، وهم الذين حملوا الكلام على أسلوب التمثيل المألوف عند العرب، والذي استعمله القرآن في مثل: ﴿ **يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ امْتَلأْتِ وَتَقُولُ هَلْ مِن مَّزِيدٍ** ﴾[2]، ﴿ **ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعاً أَوْ كَرْهاً قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ** ﴾[3]، وقد تحدثنا من قبل عن هذا الأسلوب في الكلام على قوله تعالى: ﴿ **إِنَّا عَرَضْنَا الأَمَانَةَ** ﴾.

ومن الذين ساروا على هذه الطريقة الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده رضي الله عنه، فقد لخص المرحوم الأستاذ الشيخ رشيد رضا رأيه في تفسير المنار إذ يقول:

«وتقرير التمثيل في القصة على هذا المذهب هكذا: إن إخبار الله الملائكة بجعل الإنسان خليفة في الأرض هو عبارة عن تهيئة الأرض وقوى هذا العالم وأرواحه التي بها قوامه ونظامه لوجود نوع من المخلوقات يتصرف فيها فيكون به كمال الوجود في هذه الأرض، وسؤال الملائكة عن جعل خليفة يفسد في الأرض لأنه يعمل باختياره،ويعطى استعداداً في العلم والعمل لا حد لهما، وهو تصوير لما

---

(١) وفي تفسير ابن كثير، وتفسير القرطبي وغيرهما، بيان واسع عن هذا الخلاف وفروعه ومظاهره.

(٢) الآية ٣٠ من سورة ق.

(٣) الآية ١١ من سورة فصلت.

في استعداد الإنسان لذلك، وتمهيد لبيان أنه لا ينافي خلافته في الأرض وتعليم آدم الأسماء كلها، بيان لاستعداد الإنسان لعلم كل شيء في هذه الأرض، وانتفاعه به في استعمارها، وعرض الأسماء على الملائكة وسؤالهم عنها وتنصلهم في الجواب تصوير لكون الشعور الذي يصاحب كل روح من الأرواح المدبرة للعوالم محدودا لا يتعدى وظيفته ... إلخ»[1].

....

وليس من غرضنا في هذا البحث أن نبين ما يؤخذ على هؤلاء وأولئك وما يدافعون به، وإنما أردنا فقط أن نعطي القارئ صورة موجزة عن هاتين الطريقتين، ثم ننتقل إلى تسجيل ما يهمنا من الحقائق في هذا الشأن.

فسواء أكان الأمر مبنيًا على الحقيقة، أو مصورًا بصورة التمثيل، فإن هذه الموازنة القرآنية بين هذين النوعين من الخلق، وهما الإنسان والملائكة، قد انتهت إلى تقرير الحقيقتين الآتيتين:

أولاً: الملائكة خلق مسبح بحمد الله مقدس له، أي أن كل ما يصدر عنهم هو طاعة وعبادة، ولا يمكن أن يصدر عنهم عصيان لله، وخروج على أمره.

أما الإنسان فهو خلق يصدر عنه – أي عن مجموعه – الفساد وسفك الدماء، فلا يمكن أن يتصور خلو هذا النوع ممن يفسد ويسفك، لأن هذا هو مقتضى التزاحم والتنافس على فرص الحياة وما فيها من متاع، ومقتضى ما فطر عليه الإنسان من شهوة وغضب.

ولازم هذا أن الطبيعة التي تحتمل صدور الفساد – وهي طبيعة الإنسان – لم تحل بينه وبين أن يكون خليفة في الأرض، أي سيدًا لها ممكنًا فيها، قائمًا بأمر الله عليها إلى الأجل المسمى لهذا الكوكب عند الله، وأن الطبيعة التي يستحيل عليها الفساد والتمرد – وهي طبيعة الملائكة – لم تقتض أن يعهد إلى أصحابها بالخلافة في الأرض، والقيام على أمر الله فيها.

(١) ص ٢٨١ ج أول من تفسير المنار.

وبعبارة أخرى: لم يكن انطواء الإنسان على الغريزة التي من شأنها أن يصدر عنها الفساد والعصيان، مانعًا – ولم يكن انطواء الملائكة على الفطرة الصافية المبرأة عن الاتجاه إلى الفساد والعصيان مقتضياً.

وهذا كله يؤخذ من قوله تعالى ردًا على سؤال الملائكة: ﴿**إِنِّي أَعْلَمُ مَا لاَ تَعْلَمُونَ**﴾ فالله تعالى لم يبطل ما قرروه من أن الإنسان ﴿**يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ**﴾ ولكن أبطل ما يدل عليه السؤال من أنهم وهم المسبحون المقدسون أليق بالخلافة على الأرض، فكأنه يقول: إن الإفساد والسفك ليسا كل شيء في طبيعة هذا المخلوق، ولكنه مزود بقوى ومواهب واستعدادات أخرى ترجح وزنه، وتغمر طبيعة الفساد والسفك فيه، بل إن الفساد والسفك كثيراً ما يكونان سبيلاً إلى الصلاح وصون الدماء، ولا يقال إن قوله تعالى: ﴿**إِنِّي أَعْلَمُ مَا لاَ تَعْلَمُونَ**﴾ غير كاف في الرد على السؤال الذي ورد على ألسنة الملائكة، وأنه لا يعدو أن يكون إجمالاً شديدًا في مقام يقتضي التفصيل للإقناع وإقامة الحجة – لا يقال ذلك، لأن الكلام أتبع بقوله تعالى: ﴿**وَعَلَّمَ آدَمَ الأَسْمَاء كُلَّهَا**﴾ وفي ذلك بيان لوجه اختيار لإنسان خليفة من دون الملائكة.

وأحب أن أقرر هنا معنى لم أجد أحداً ممن تكلموا في هذه الآيات قرره، وذلك هو أنه لا ينبغي أن يفهم من قوله: ﴿**وَعَلَّمَ آدَمَ الأَسْمَاء كُلَّهَا**﴾ ما قد يبدو من أن هذا التعليم الإلهي وقع أثر سؤال الملائكة ورد الله عليهم، فلو كان الأمر كذلك لكان لسائل أن يسأل: أي حجة في أن يعلم الله آدم الأسماء بعد محاجتهم إياه جل وعلا، ليقيم عليهم الحجة بأنه أليق منهم؟ والمفروض أنه قد اختار لذلك ورجحه عليهم فلا يستقيم أن يكون التعليم واقعًا بعد المحاجة، والوجه في هذا أن يقال: إن قوله تعالى: ﴿**وَعَلَّمَ آدَمَ**﴾ إلخ، كلام جاء على أسلوب الجمل المعترضة، كأنه قال: وكان علم آدم الأسماء أي خلقه منذ خلقه معلمًا ذلك، وهذا نظير ما جاء في آية الأمانة حيث قال تعالى: ﴿**إِنَّا عَرَضْنَا الأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الإِنسَانُ**﴾[1] فليس المراد:

(1) الأحزاب: ٧٢.

وعرضناها على الإنسان فحملها، ولكن المراد والله أعلم: وخلقنا الإنسان منذ خلقناه حاملاً إياها، لأن طبيعة حمله المسئولية مركوزة فيه منذ أول مرة، فلم يأت عليه وقت كان فيه غير حامل ثم حمل، وكذلك لم يأت على الإنسان وقت كان فيه غير مستعد لمعرفة ما في الكون من الخواص على ما سنبين، ثم صار مستعداً.

وبهذا يتبين أن قوله تعالى: ﴿ وَعَلَّمَ آدَمَ الأَسْمَاء كُلَّهَا ﴾ هو بيان لوجه استحقاقه الخلافة من دون الملائكة، ووجه الاستحقاق لابد أن يكون موجوداً حالة الاختيار، ولا معنى لأن أختار إنسانًا ما لعمل أريده، فإذا جودلت في سر اختياره عرفته خواص هذا العمل ليبدو لمن جادلني فيه أنه أحق به.

ثانيًا: الإنسان قد خص بموهبة لم يهبها الله ملائكته، وهذه الموهبة هي أساس استحقاقه الخلافة في الأرض من دونهم، فالله تعالى يقول: ﴿ وَعَلَّمَ آدَمَ الأَسْمَاء كُلَّهَا ﴾ ثم يبين أن الملائكة عاجزون عن علم ما علم الله آدم، معترفون بلسان المقال أو بلسان الحال بهذا العجز حيث يقولون: ﴿ سُبْحَانَكَ لاَ عِلْمَ لَنَا إِلاَّ مَا عَلَّمْتَنَا ﴾ وتلك الموهبة هي قدرة الإنسان بحسب ما فطر عليه، على معرفة خواص الأشياء المنبثة في هذا الكون، ومتابعتها بالنظر واستنباط المعلوم من المجهول، والترقي من معلوم إلى معلوم ويرشد إلى ذلك قوله تعالى: ﴿ وَعَلَّمَ آدَمَ الأَسْمَاء كُلَّهَا ﴾.

وأحب أن أقف قليلاً عند لفظ «علم» فإن هذا اللفظ ورد في القرآن دالاً على معنى خلق الاستعداد لشيء، مثل قوله: ﴿ عَلَّمَ بِالْقَلَمِ، عَلَّمَ الإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴾(١)، فإن معناه – والله أعلم – أنه هيأه على طبيعة ومجموعة من الملكات القابلة، تجعله مستعداً للتعلم بالقلم، وتعلم ما لم يكن يعلم عن طريق التتبع كما يتعلم ما لم يكن يعلم عن طريق التلقي، وقريب من هذا قوله تعالى: ﴿ الرَّحْمَنُ * خَلَقَ الإِنسَانَ * عَلَّمَهُ الْبَيَانَ ﴾(٢)، فقوله تعالى: ﴿ عَلَّمَ الْقُرْآنَ ﴾ صالح فيما أرى لأن يفسر بتفسيرين:

---

(١) الآيتين ٤ – ٥ من سورة العلق.

(٢) الآيات من ١ – ٤ من سورة الرحمن.

أحدهما: أن «القرآن» بمعنى القراءة، فإن اللغة تقول: قرأ يقرأ قراءة وقرآنا، فهو مصدر والامتنان فيه بأن الله تعالى وهب الإنسان خاصية القراءة من بين سائر الحيوان المشارك له في جنسه الأعم، فليس فيها من يستطيع أن يقرأ غيره، كما امتن في الآية الأخيرة بأنه ﴿ **عَلَّمَهُ الْبَيَانَ** ﴾ فليس في الحيوان من له قدرة البيان إلا الإنسان، فتعليمه البيان هو جعله على حالة يستطيع معها أن يبين، وأن يتفاهم بألفاظ مرتبة يصطلح عليها، ويحل بها سائر مشكلاته، وينظم على أساسها مجتمعه، ولا ينبغي أن يظن أن ﴿ **عَلَّمَ الْقُرْآنَ** ﴾ بهذا المعنى تغني عن ﴿ **عَلَّمَهُ الْبَيَانَ** ﴾ فإن البيان أعم، والقرآن بمعنى القراءة أخص، ولا يقال عن شيء نطق به الناطق «قرآنًا» حتى يكون نوعًا ممتازًا من البيان لا مجرد إبانة عن القصد بأي كلام، وفي أي شأن.

والخلاصة في هذا الوجه أن ﴿ **عَلَّمَ الْقُرْآنَ** ﴾، و﴿ **عَلَّمَهُ الْبَيَانَ** ﴾ يراد بهما ما خلق عليه الإنسان من استعداد وتمكين من أن يكون قارئًا ومبينًا، وذلك يؤنسنا حين نفسر قوله تعالى: ﴿ **وَعَلَّمَ آدَمَ الأَسْمَاءَ كُلَّهَا** ﴾ بأن المراد خلقه على حالة يكون بها مستعدًا لمعرفة الخواص وتتبعها والإفادة منها على وجه الترقي، لا كالملائكة الذين لا يعرفون الأشياء إلا على وجه التلقي، المعبر عنه بما يحكيه الله عنهم من قوله: ﴿ **سُبْحَانَكَ لاَ عِلْمَ لَنَا إِلاَّ مَا عَلَّمْتَنَا** ﴾.

الثاني: من الوجهين الصالحين لأن تفسر بهما الآيات الأولى من سورة «الرحمن» أن القرآن هو الكتاب المعهود الذي أنزله الله على سيدنا محمد ﷺ، ونبادر فنقرر أن هذا هو المتبادر، ولكنه أيضًا يفيدنا نفس الفائدة في المراد بكلمة ﴿ **عَلَّمَ** ﴾ – بيان ذلك أن رسول الله ﷺ كان يخشى أول عهده بنزول القرآن أن يضيع شيء منه نسيانًا له، فكان – فيما صح – يلاحق الوحي ويتابعه محركًا به لسانه كما يفعل الناس عادة حين يكررون ما يسمعون وراء القارئ إرادة حفظه وعدم انفلات شيء منه وهذا هو المعنى المشار إليه في قوله تعالى: ﴿ **لا تُحَرِّكْ بِهِ**

(١) الآيات من ١٦ – ١٨ من سورة القيامة.

لسانك لتعجل به، إنَّ علينا جمعه وقرآنه، فإذا قرأناه فاتبع قرآنه ﴾[1]، وقوله عز وجل: ﴿ سنقرئك فلا تنسى ﴾[1] فقد تكفل الله تعالى بتثبيت آيات القرآن في صدر نبيه ﷺ بتعليم منه على خلاف ما يعهد في البشر جملة، وهذا التعليم الإلهي هو المذكور في قوله تعالى: ﴿ علم القرآن ﴾ أي علم نبيه على وجه معين بحيث لا يضيع منه أي حرف، وهكذا يتبين أن كلاً من ﴿ علم القرآن ﴾، و﴿ سنقرئك فلا تنسى ﴾، و﴿ إن علينا جمعه وقرآنه ﴾ تتحدث عن موهبة خاصة فوق المألوف عند البشر، يأمن النبي ﷺ بها أن يضيع شيء مما ينزل عليه، وهذا هو منطلق النبوة والرسالة، ولو جاز عقلاً أن يكون الرسول ﷺ في هذا كسائر الناس، لجاز عقلاً أن يكون قد ضاع من وحي الله وقرآنه شيء، وحاش لله.

وإذن فخلاصة هذا الوجه أيضًا: أن كلمة ﴿ علّم ﴾ قد عهدت في القرآن بمعنى تهيئة الإنسان وطبعه على ملكات استعدادية خاصة تجعله ممتازًا عن غيره، في قدرته على ما لا يقدر عليه غيره.

....

وبهذا، وبما ذكرناه في تفسير آية الأمانة، يتبين أن القرآن الكريم قد حدد وضع الإنسان بالنسبة للسموات والأرض والجبال، ثم بالنسبة للملائكة، وأن هذا التحديد إنما كان هدفه بيان قيمة هذا المخلوق وما أسند إليه من مهمة عظيمة في هذا الكون، وما صلح به من إمكانيات تجعله قادرًا على القيام بها، وأن هذا كله يبين لنا الحكمة الإلهية في أن الله تعالى قد آثر هذا المخلوق بالخلافة في الأرض أي بأن يكون سيدها الممكن فيها.

---

(١) الآية ٦ من سورة الأعلى.

الفصل الخامس

أنواع النفس الإنسانية

اللغة العربية تطلق لفظ «النفس» على معان متعددة، منها الروح، وشاهده قوله تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَى إِذِ الظَّالِمُونَ فِي غَمَرَاتِ الْمَوْتِ وَالْمَلاَئِكَةُ بَاسِطُواْ أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُواْ أَنفُسَكُمُ﴾(١)، ومنها ما يكون به التمييز والتفكير كقولهم: في نفس فلان أن يفعل كذا، أي في روعه، وقد اجتمع هذان المعنيان في قوله تعالى: ﴿اللَّهُ يَتَوَفَّى الأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا فَيُمْسِكُ الَّتِي قَضَى عَلَيْهَا الْمَوْتَ وَيُرْسِلُ الأُخْرَى إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى﴾(٢)، قال ابن بري: إن النفس الأولى هي التي تزول بزوال الحياة، والنفس الثانية هي التي تزول بزوال العقل.

والعرب قد تجعل النفس التي يكون بها التمييز نفسين، وذلك أن النفس قد تأمر بشيء وتنهي عنه، وهذا عند الإقدام على أمر مكروه، أو أمر لم يتبين فيه الصلاح، فجعلوا التي تأمره نفساً، وجعلوا التي تنهاه نفساً أخرى، وعلى ذلك قول الشاعر:

فنفساي نفس قالت: ائت ابن بجدل تجد فرجًا من كل غمى تهابها

ونفس تقول: اجهد، نجاءك! لا تكن كخاضبة لم يغن عنها خضابها

وكثيراً ما يعبر بالنفس عن الإنسان جميعه كقولهم: عندي ثلاثة أنفس، وتقول: قتل الإنسان نفسه، وأهلكها، أي أوقع الإهلاك بذاته كلها، ومنه قوله تعالى: ﴿وَلاَ تَقْتُلُواْ أَنفُسَكُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيماً﴾(٣).

وهناك معان أخرى غير ذلك لا نطيل بذكرها.

ومن الواضح أن «النفس» التي هي موضوع هذه الفصول التحليلية، ليست هي

(١) الآية ٩٣ من سورة الأنعام.
(٢) الآية ٤٢ من سورة الزمر.
(٣) الآية ٢٩ من سورة النساء.

النفس بمعنى الروح الذي تكون به حياة الجسم المادية، وليست هي الإنسان كله، أي هذه الذات، وهذا القالب الشخصي بجميع محتوياته أو مشتملاته ولكن موضوع هذه الدراسات هو اقرب إلى ما يقول عنه اللغويون: «ما به يكون التمييز» غير أن هذا التعبير لا يؤدي المعنى المقصود لنا من كل ناحية، فإنما نريد «بالنفس الإنسانية» هذا المورد الخفي الذي يشعر به كل منا في دخيلته، والذي تصدر عنه جميع تصرفاته الخلقية والعاطفية، والذي هو معرض غرائزه أو ملكاته، ومالها من تفاعل فيما حوله، وفيمن حوله، على سبيل التجاوب أو التدافع.

هذا المورد الداخلي الخفي في الإنسان، وهذا المعرض لغرائزه وملكاته، وهذا المصدر لخواطره واتجاهاته، هو ما نريده «بالنفس الإنسانية»، وهو مدار تلك البحوث التحليلية المستندة إلى الكتاب والسنة.

ولا ينبغي أن يفهم من هذا أننا سوف لا نعرض في هذه البحوث إلى أي مظهر من المظاهر المادية للإنسان، فإننا على العكس سنوليها كثيراً من الاهتمام باعتبارها مظاهر أصيلة لها صلات وثيقة بالنفس الإنسانية، وقد تكون منابع لبعض الأخلاق والعواطف والاتجاهات العقلية، كما قد تكون آثاراً ونتائج لذلك.

والمعنى الذي اعتبره العرب في جعل النفس التي بها يكون التمييز نفسين أو أكثر، ليس معنى حقيقيًا، وإنما هو معنى تصويري يراد به أن النفس تتصف بصفات متعددة، وتنتابها حالات مختلفة، حتى كأنها نفسان أو نفوس متعددة.

وقد جاء في القرآن الكريم ثلاث آيات وصفت النفس الإنسانية في كل منها بوصف معين، وربما فهم بعض الناس من هذا أن النفوس الإنسانية أنواع أو أقسام ثلاثة:

أما هذه الآيات فهي:

أولاً: قوله تعالى في سورة الفجر: ﴿ **يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ، ارْجِعِي إِلَى رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً، فَادْخُلِي فِي عِبَادِي، وَادْخُلِي جَنَّتِي** ﴾[1].

(١) الآيات من ٢٧ – ٣٠ من سورة الفجر.

ثانيًا: قوله تعالى في سورة القيامة: ﴿ **لا أُقْسِمُ بِيَوْمِ الْقِيَامَةِ، وَلا أُقْسِمُ بِالنَّفْسِ اللَّوَّامَةِ** ﴾(١).

ثالثًا: قوله تعالى في سورة يوسف: ﴿ **وَمَا أُبَرِّئُ نَفْسِي إِنَّ النَّفْسَ لأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلاَّ مَا رَحِمَ رَبِّيَ إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَّحِيمٌ** ﴾(٢).

وأما النفوس الثلاث المذكورة في هذه الآيات فهي:

النفس المطمئنة، والنفس اللوامة، والنفس الأمارة بالسوء.

والواقع أن النفس الإنسانية واحدة، وهذه حالات لها، فمن غلبت على نفسه حالة من هذه الحالات وصفت بها، وكلها حالات اكتسابية لها عواملها وأسبابها التي تحقق معها "المسئولية" أو "الأمانة" التي حملها الإنسان، وآيات القرآن واضحة في تقرير ذلك، مثل قوله تعالى: ﴿ **كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ** ﴾(٣)، ﴿ **وَذَكِّرْ بِهِ أَن تُبْسَلَ نَفْسٌ بِمَا كَسَبَتْ** ﴾، ﴿ **أُولَـئِكَ الَّذِينَ أُبْسِلُواْ بِمَا كَسَبُواْ** ﴾(٤)، ﴿ **وَلاَ تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلاَّ عَلَيْهَا** ﴾(٥).

على أننا نساير هذه المظاهر المختلفة للنفس بكل اعتبار من هذه الاعتبارات الثلاثة لننظر كيف درس القرآن الكريم ما سميناه «بالنفس الإنسانية».

النفس المطمئنة: القرآن الكريم لا يذكر هذا الوصف العنواني إلا في موضع واحد، هو الموضع الذي ذكرناه من قبل، ولكنه يذكر فعل الاطمئنان مسنداً إلى القلوب في غير موضع، مثل قوله تعالى: ﴿ **الَّذِينَ آمَنُواْ وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ اللّهِ أَلاَ بِذِكْرِ اللّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ** ﴾(٦)، ﴿ **وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِـي الْمَوْتَى قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن قَالَ بَلَى وَلَـكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي** ﴾(٧)، ﴿ **إِلاَّ مَنْ**

---

(١) الآيتين ١، ٢ من سورة القيامة.
(٢) الآية ٥٣ من سورة يوسف.
(٣) الآية ٣٨ من سورة المدثر.
(٤) الآية ٧٠ من سورة الانعام.
(٥) الآية ١٦٤ من سورة الانعام.
(٦) الآية ٢٨ من سورة الرعد.
(٧) الآية ٢٦٠ من سورة البقرة.

﴿ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالإِيمَانِ ﴾[1].

وطمأنينة القلب هي سكونه واستقراره بزوال القلق والاضطراب، وهذا المعنى نفسه هو اطمئنان النفس، وكثيراً ما يعبر القرآن الكريم بالقلب والقلوب في مقام النفس والنفوس.

ويجمل بنا أن نقف قليلاً عند الآية الأولى من هذه الآيات التي تتحدث عن اطمئنان القلوب.

فقوله تعالى: ﴿ الَّذِينَ آمَنُواْ وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ اللّهِ ﴾ هو بدل من قوله تعالى: ﴿ مَنْ أَنَابَ ﴾ في آخر الآية السابقة: ﴿ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ أَنَابَ ﴾.

والإنابة والنوب هما الرجوع مرة بعد أخرى، يقال ناب نوبًا، ونوبة، وأناب إنابة، وسمي النحل «نوبًا» لرجوعها إلى مقارها، وفلان ينتاب فلانًا أي يقصده مرة بعد أخرى[2]، وفي القرآن الكريم: ﴿ وَخَرَّ رَاكِعاً وَأَنَابَ ﴾[3]، ﴿ وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا ﴾[4]، ﴿ وَأَنِيبُوا إِلَى رَبِّكُمْ ﴾[5]، ﴿ مُنِيبِينَ إِلَيْهِ وَاتَّقُوهُ ﴾[6].

فالمادة كلها تفيد معنى الرجوع والعود، ولما كان المؤمن رجاعًا إلى الله في كل أمره: إن أخطأ تاب إليه، وإن أخلص أرجع قصده إليه، وإن احتاج رد نفسه عن كل ما سواه إليه، سمي "منيبًا" أي راجعًا، أو رجاعًا، وهو مثل «أواب» في قوله تعالى: ﴿ هَذَا مَا تُوعَدُونَ لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيظٍ ﴾[7]، ﴿ وَوَهَبْنَا لِدَاوُودَ سُلَيْمَانَ نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ ﴾[8].

---

(١) الآية ١٠٦ من سورة النحل.

(٢) مفردات الراغب مادة (نوب).

(٣) الآية ٢٤ من سورة ص.

(٤) الآية ٤ من سورة الممتحنة.

(٥) الآية ٥٤ من سورة الزمر.

(٦) الآية ٣١ من سورة الروم.

(٧) الآية ٣٢ من سورة ق.

(٨) الآية ٣٠ من سورة ص.

فالآية الكريمة تقرر سنة من سنن الله تعالى في عباده، هي أنه يهدي إليه من كان رجاعًا منيبًا، ثم تقرر أن العبد إنما يكون رجاعًا إلى الله منيبًا إليه إذا كان مؤمنًا به، وكان من شأنه أن يطمئن قلبًا بذكره، وهذا حكم منطقي عقلي، فإن الرجوع إلى شيء يقتضي أن الراجع إليه مؤمن به، أي على ثقة من وجوده، ومن صفاته التي تجعله مرجعًا له، وتقتضي أيضًا أنه حين يذكر يحصل الاطمئنان القلبي لمن ألف أن يرجع إليه وثوقًا به، فلذلك جاز في المعنى أن يبدل ﴿ الَّذِينَ آمَنُواْ وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ اللَّهِ ﴾ من ﴿ مَنْ ﴾ في قوله: ﴿ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ أَنَابَ ﴾.

ثم تقرر الآية الكريمة سنة أخرى من سنن الله تعالى في عباده، هي المعبر عنها بقوله جل ذكره: ﴿ أَلاَ بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ ﴾، وهذا لا ينبغي أن يؤخذ على أنه وعظ أو حث على ذكر الله، فإن الأمر أجل من ذلك، وإنما هو تعبير دقيق عن أصل من الأصول النفسية القرآنية منتزع من واقع الإنسان الذي يعلمه خالقه كما هو.

بيان ذلك: أن الإنسان مخلوق يقدر العواقب ويفكر فيها، وإن لم يواجه الأحداث مواجهة فعلية – فليس كالحيوان الذي لا يدرك عاقبة ما، أو يدرك بعض العواقب على وجه ناقص، أو لا يدرك إلا ما واجهه من الحوادث إدراكًا وقتيًا – وهذا هو معنى الشعور بالمسئولية أو هو الباعث الذي عنه ينبعث هذا الشعور، والشأن فيمن يحمل المسئولية أن يشفق من الخطأ في التصرف، فهو يجتهد حسب استطاعته في أن يصدر على الأشياء حكمًا صحيحًا، وفي أن يقف منها موقفًا سليمًا، مع أن بعض الظروف قد يفوته أن يلاحظه، وبعض الشهوات أو الرغبات قد يعميه أو يصمه، وهناك جوانب أخرى تتحكم في قراره أو في تصرفه من حيث لا يشعر، فهو إذن عرضة لأن يقع في الخطأ، وعرضة لأن يستمر في الخطأ حتى بعد أن يعلمه، وعرضة لأن تجرفه الأسباب الخفية التي نسميها الأقدار، وهو من هذا كله في إشفاق وفي خوف وفي حركة نفسية دائبة هي القلق وعدم الاستقرار، وهذا شأن كل حي من هذا الجنس البشري، وليس له إلا علاج واحد هو الإيمان بقوة غيبية لها إرادة وتوجيه وسنن في الهداية والتوفيق، ولها رحمة وإحسان

وحكمة وعدل، فالدين يعطي الإنسان الإيمان بهذه القوة الغيبية السامية، ويعلمه كيف يرجع إليها فيكون رجاعًا إلى الله، أو منيبًا إليه، أو أوابًا، ويعرفه بصفات هذه القوة التي يؤمن بها ويرجع إليها، فتكون ثمرة هذه المعرفة هي الاطمئنان والسكون وقرار النفس، وابتعاد عوامل القلق والاضطراب والانزعاج.

فهذا هو المقصود بقوله تعالى: ﴿ **أَلاَ بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ** ﴾ وهو حصر بتقديم الجار والمجرور في قوله: ﴿ **بِذِكْرِ اللَّهِ** ﴾ أي ليس من شأن القلوب أن تطمئن ألا بذكر الله، وقد جرت سنة الله في خلقه، وعلمتنا التجارب وحوادث الدهر أن من اطمأن قلبه إلى شيء سوى الله تعالى أتاه القلق والاضطراب من قبله، أما من يكون اطمئنانه بالله فهو يتلقى كل شيء من الله حكمًا وفعلاً وتصريفًا وتدبيرًا بالقبول والتسليم، فيجد لذلك ثلج اليقين، وقد وازن القرآن الكريم بين من اطمأنت قلوبهم بالإيمان، ومن اطمأنوا بالحياة الدنيا وفرحوا بها فقال تعالى: ﴿ **إِنَّ الَّذِينَ لاَ يَرْجُونَ لِقَاءَنَا وَرَضُواْ بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاطْمَأَنُّواْ بِهَا وَالَّذِينَ هُمْ عَنْ آيَاتِنَا غَافِلُونَ، أُوْلَـئِكَ مَأْوَاهُمُ النُّارُ بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ، إِنَّ الَّذِينَ آمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُمْ بِإِيمَانِهِمْ تَجْرِي مِن تَحْتِهِمُ الأَنْهَارُ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ** ﴾[١].

وفي السنة المطهرة ما يؤيد هذا الدرس القرآني، فعن أبي يحيى صهيب بن سنان رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «عجبًا لأمر المؤمن، إن أمره كله له خير، وليس ذلك لأحد إلا للمؤمن: إن أصابته سراء شكر فكان خيرًا له، وإن أصابته ضراء صبر فكان خيرًا له»[٢].

هذا هو شأن المؤمن، يعيش في الحالين مطمئنًا راضيًا قرير العين، وقد أنبأنا الرسول الكريم صلوات الله وسلامه عليه أن هذه القوة، وهذه الطمأنينة ليست لأحد إلا للمؤمن، لأنه هو الذي يعرف أن لنعمته مصدرًا فيشكر، وأن له في الشدائد ملجأ فيصبر، أم غير المؤمن فهو دائمًا في اضطراب وتبلبل، تبطره النعمة،

(١) الآيات من ٧ – ٩ من سورة يونس.

(٢) مسلم ك/ الزهد والرقائق ب/ المؤمن أمره كله خير (٥٣١٨).

وتضجره النقمة، فيعيش ما عاش بين البطر والضجر، ولذلك كان أمر المؤمن عجباً، حيث استطاع بإيمانه ويقينه أن يغلب نوازع النفس البشرية، وأن يتسع صدره للحياة في نعمائها وضرائها على سواء.

وفي هذا المعنى يقول أحكم الحاكمين: ﴿ **إِنَّ الإِنسَانَ خُلِقَ هَلُوعاً، إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعاً، وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعاً، إِلا الْمُصَلِّينَ** ﴾[1]، فقد بين الله طبيعة الإنسان إزاء الشر والخير، واستثنى المصلين، والصلاة هي صنو الإيمان، وعماد اليقين والاطمئنان.

---

(١) الآيات من ١٩ – ٢٢ من سورة المعارج.

الفصل السادس

رعاية القرآن للنفس الإنسانية

تحدثنا في الفصل السابق عن قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ آمَنُواْ وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ اللَّهِ، أَلاَ بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ﴾[1]، ونتحدث الآن عن قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَى قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن قَالَ بَلَى وَلَكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي﴾[2] وذلك كله في نطاق حديثنا عن «النفس المطمئنة»:

إننا إذا تأملنا هذه الآية الكريمة وجدناها تقرر أن «الاطمئنان» مرتبة بعد «الإيمان» وبتعبير آخر: إن الإنسان قد يكون مؤمنًا بربه، إيمانًا لا يعتريه شك ما، ومع ذلك يتطلب لنفسه منزلة الاطمئنان.

فإبراهيم عليه السلام كان مؤمنًا بالله حق الإيمان، وتلك قضية مفروغ منها، لأنه نبي كريم أوحى إليه من ربه، وهو محطم الأصنام وباني البيت الحرام، ولكنه تطلع إلى غاية من شأنها أن تنفي عن هذا الإيمان كل العوامل التي لعلها تحاول أو من شأنها أن تحاول الإرجاف عليه قصداً إلى توهينه أو تحطيمه، فإيمان إبراهيم أمر وجودي إيجابي كان به يعتقد أن له إلهاً قادراً هو ربه الذي عرفه بصفاته وآثاره حيث يقول: ﴿الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ، وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ، وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ، وَالَّذِي يُمِيتُنِي ثُمَّ يُحْيِينِ، وَالَّذِي أَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ﴾[3].

ولكن هذا الإيمان الوجودي الإيجابي لا يستغنى عن صيانة له، وعن مدافعة لجميع الواردات التي قد ترد على النفس الإنسانية في شأنه، فإن القلوب يعتريها

---

(١) الآية ٢٨ من سورة الرعد.

(٢) الآية ٢٦٠ من سورة البقرة.

(٣) الآيات ٧٨ – ٨٢ من سورة الشعراء.

التقلب والتحول، فإذا دعا إبراهيم ربه أن يريه «كيف» يحي الموتى، فإنه يتطلب لونًا من ألوان التحصين والتأمين، حتى ينال الطمأنينة والثقة مما عسى أن يداخله أو يراوده، ولذلك لم يقل في دعائه:

رب هل تحيى، ولكن قال: ﴿كَيْفَ تُحْيِي﴾ فإن الأولى سؤال عن أصل القضية، وهو أمر مفروغ منه متقرر في نفس إبراهيم، وفي نفس كل مؤمن، أما الثانية فهي سؤال عن «كيفية» حصول الشيء، وذلك فرع الإيمان به، ومن شأنه أن يقر هذا الإيمان ويزيد في ثباته.

ومثل ذلك كما لو فرضنا بدويًا في مكان سحيق لم ير فيه «طيارة» مصنوعة قط. ولكنه سمع بها ممن لا يشك في صدقه، فهو بوجودها مؤمن، وبقدرتها على الطيران واثق، ولكنه مع ذلك يجب أن ينتقل إلى منزلة أخرى هي منزلة من رآها رأى العين، وعرف كيف تطير، فإذا تطلب ذلك لم يكن شاكًا في أمرها، وإنما يكون حريصًا على معرفة سرها، ومعرفة السر زيادة في العلم، وحصانة من أي طارئ من طوارئ الشك.

ولذلك نجد الآية الكريمة قائمة على إقرار المرتبتين: مرتبة الإيمان، ومرتبة الاطمئنان، فيسأل الله تعالى خليله: ﴿أَوَلَمْ تُؤْمِن﴾ وهو سؤال العارف بأنه آمن، وغايته أن يقر صراحة بالإيمان حتى لا يظن ظان أنه شاك في أصل القضية، فهو على حد قوله تعالى: ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ﴾ وأمثاله، ويجيب إبراهيم ربه: ﴿بَلَى، وَلَكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي﴾ ومعناه: بلى إني لمؤمن، ولكني أريد أن أحصن هذا الإيمان، عما عسى أن يراود الجنان، فأصل إلى منزلة الاطمئنان.

وهذا الإقرار للمرتبتين توحي به الآية الأولى أيضًا، فهي تقول: ﴿الَّذِينَ آمَنُواْ وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ اللّهِ﴾ فتعطف الاطمئنان على الإيمان وتجمع لهم بين الأمرين.

وهناك آيات أخرى تفيد أن مرتبة الاطمئنان مرتبة يتطلع إليها المؤمنون، ويجيبهم الله إليها بمنحهم أسبابها، ومن ذلك قوله تعالى في شأن إغاثة المؤمنين

بالملائكة يوم بدر: ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُرْدِفِينَ، وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِ قُلُوبُكُمْ وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ، إِذْ يُغَشِّيكُمُ النُّعَاسَ أَمَنَةً مِّنْهُ وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُم مِّنَ السَّمَاءِ مَاءً لِّيُطَهِّرَكُم بِهِ وَيُذْهِبَ عَنكُمْ رِجْزَ الشَّيْطَانِ وَلِيَرْبِطَ عَلَىٰ قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ الْأَقْدَامَ﴾(١). ولنا إلى هذه الآيات عودة لندرسها ونبين ما تدل عليه من رعاية القرآن للمعاني النفسية.

ومن ذلك أيضاً قوله تعالى في شأن ما طلبه الحواريون من إنزال المائدة: ﴿قَالُوا نُرِيدُ أَن نَّأْكُلَ مِنْهَا وَتَطْمَئِنَّ قُلُوبُنَا وَنَعْلَمَ أَن قَدْ صَدَقْتَنَا وَنَكُونَ عَلَيْهَا مِنَ الشَّاهِدِينَ، قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ اللَّهُمَّ رَبَّنَا أَنزِلْ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِّنَ السَّمَاءِ تَكُونُ لَنَا عِيدًا لِّأَوَّلِنَا وَآخِرِنَا وَآيَةً مِّنكَ وَارْزُقْنَا وَأَنتَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ، قَالَ اللَّهُ إِنِّي مُنَزِّلُهَا عَلَيْكُمْ﴾(٢)، فقد عللوا طلبهم المائدة برغبتهم في الوصول إلى منزلة الاطمئنان عن طريق المشاهدة لها والأكل منها، والوثوق بصدقه عن طريق تصديق الله إياه بالمعجزة الحسية، والشهادة على هذه المعجزة عند من لم يرها من الناس، فأقرهم عيسى على هذا الطلب بأن دعا الله تعالى أن يحققه، وذلك يتضمن إقرار المعنى الذي ذكرناه، ثم أقر الله ذلك حيث قال: ﴿إِنِّي مُنَزِّلُهَا عَلَيْكُمْ﴾، أي ليتحقق لكم ما رجوتموه من الاطمئنان بعد الإيمان.

....

والعبرة التي نفيدها من هذا كله أن القرآن الكريم واقعي في شأن النفوس وتربيتها وأنه تنزيل الحكيم الحميد الذي يعلم أن الإنسان ولو كان مؤمناً، هو معرض لكثير من الخواطر والوساوس، وما بداخل النفوس وأن إيمانه ما هو إلا مركز يتركز فيه، ويجب أن يحاط دائماً بما يدرأ عنه الغوائل، ويدفع العدو المهاجم، ولذلك نرى القرآن الكريم يتخول الناس حيناً بعد حين بالآيات الكونية، ويلفتهم إلى كثير من أسرار هذا العالم ويرد على ما قد يثيره بعضهم، أو يثور لديه، من

(١) الآيات من ٩ – ١١ من سورة الأنفال.

(٢) الآيات من ١١٣ – ١١٥ من سورة المائدة.

شبه، وهكذا فالغاية من ذلك كله هو حياطة إيمان المؤمنين، وتجديد مادة غذائهم حتى لا يصاب إيمانهم بمثل ما تصاب به الأجسام حين يعوزها الغذاء فتضعف هي، ثم تضعف مقاومتها تبعًا لضعفها، فتهاجمها العلل والأمراض فتجدها سهلة متقبلة لها.

ومن العبر في ذلك أيضًا أن يعلم أهل العلم والدين أن الله تعالى يأذن لعباده، ولو كانوا أنبياء كإبراهيم، أو أصحاب أنبياء كالحواريين أن يتطلبوا ما يثبت به إيمانهم، وأن يعينوهم بالرفق على تحقيق هذه الغاية، فرب مؤمن يتحير في بعض القضايا أو يحتاج إلى كشف بعض الغوامض، فإذا استقبلناه استقبالاً قائمًا على الرحمة والتماس المعذرة له، ومعاونته على الوصول إلى الراحة والاطمئنان النفسي، فإننا نكون قد أخذنا بيده إلى طريق الخير، أما إذا نهرناه وخوفناه وأرجفنا عليه، وظننا به السوء، فإننا لا نفيد من ذلك إلا زيادة العقدة في نفسه استحكامًا.

....

ونرجع مرة أخرى إلى ما طلبه إبراهيم عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام من مشاهدة كيف يحيي الله الموتى، فنقول:

إن جمهور المفسرين يرون أن إبراهيم نفذ ذلك فجمع طيوراً أربعة وذبحها وقطع أجسامها، ووزعها على أربعة جبال، ثم دعاها فجاءته تسعى كما كانت قبل الذبح، وبذلك أراه الله ما طلب رأي العين.

وهذا الرأي يرد عليه اعتراضات كثيرة:

منها أن هذه الرؤية لإحياء الله الموتى كان يمكن تحققها بواحد فقط فلم كانت الطيور أربعة؟ ومنها أن ﴿ **صُرْهُنَّ** ﴾ بمعنى «أملهن» وأما التقطيع والذبح فليس في الكلام ما يدل عليه، ولو كان المراد بقوله: ﴿ **صُرْهُنَّ** ﴾ قطعهن، لم يقل إليك، فإن ذلك لا يتعدى بالي، ومنها أن الضمير في قوله: ﴿ **ثُمَّ ادْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْياً** ﴾ عائد إلى الطيور لا إلى أجزائها، ومنها من جهة المعنى أن رؤية إبراهيم للطير عائدة من الجبال ليست تحقيقًا لما سأله من أن يريه «الكيفية» وإنما أراه الطيور حية، وبين

الأمرين فرق .

لذلك يميل أبو مسلم الأصفهاني إلى أن المعنى : خذ أربعة من الطير فضمها إليك وعودها الأنس بك – على الشأن في تدريب الطير والحيوان وتأليفها – ثم اجعل على كل جبل من هذه الطيور جزءاً، أي واحداً من أربعتها، ثم ادعها، فإنها تسرع إليك لا يمنعها تفرق أمكنتها وبعدها من ذلك، فكذلك أمر ربك إذا أراد إحياء الموتى، فإنها تسرع إلى دعوته طوعًا : ﴿ **إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئاً أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ** ﴾(١) .

وعلى رأي أبي مسلم لا يكون هناك ذبح ولا تقطيع ولا إماته ولا إحياء، بل لعل إبراهيم لم يأخذ طيوراً حية، ولم يجعلها على جبال أربعة، ولم يدعها، فإن أبا مسلم يقول : « ليس في الكلام ما يدل على أنه فعل ذلك، وما كل أمر يقصد به الامتثال، فإن من الخبر ما يأتي بصيغة الأمر لاسيما إذا أريد زيادة البيان » كما إذا سألك سائل كيف تصنع الحبر مثلاً فتقول : خذ كذا وكذا وافعل به كذا، يكن حبراً – تريد هذه كيفيته، ولا تعني تكليفه صنع الحبر بالفعل(٢) .

وعلى هذا أيضًا يكون السبب في جعل الطيور أربعًا، والجبال أربعًا، أن المراد أن الله يحيى الموتى ويجمعهم من جميع الجهات، ولما كانت الجهات الأصلية أربعًا، بنى التمثيل على ذلك، وكأنه تعالى يقول لنبيه إبراهيم : أرأيت لو أنك ألفت إليك أربعة من الطير حتى صارت تأنس بك وتميل إليك، ثم فرقتها فجعلت كل واحد منها على جبل من جبال أربع ثم دعوتها إليك، ألا تراها لإلفها بك، وتجاوبها معك تأتيك ساعية بمجرد الدعوة، فكذلك أمرى في سرعة تلبية الموتى لما أدعوهم إليه من العودة إلى الحياة، فهو تمثيل للسرعة والمطاوعة وتجاوب النفوس وانجذابها إلى الله، لأنها من روحه ﴿ **فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُواْ لَهُ سَاجِدِينَ** ﴾(٣)، ولأنها متجهة نحوه صائرة إليه، كما تتجه هذه الطيور إلى من

(١) الآية ٨٢ من سورة يس .

(٢) راجع تفسير المنار، وتفسير الإمام الرازي، في هذه الآية .

(٣) الآية ٢٩ من سورة الحجر .

تالفها وضمها: ﴿يَا أَيُّهَا الإِنسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَى رَبِّكَ كَدْحاً فَمُلاقِيهِ﴾[1].

وإذن فإبراهيم لم يطلب أن يرى بعينيه كيفية الإحياء ومراحل التكوين لأن هذا شأن لا يرى بالعين، ولكن ترى آثاره، فالعين لا ترى التكوين، ولكن ترى ما تكون، وإنما طلب إبراهيم أن يعلم على أي وجه من السرعة والتلبية والتجاوب يكون الإحياء، وهذا هو الذي أراه الله إياه، إذ ضرب له مثلاً من الطير والجبال.

والغاية من شرحنا لهذا الجانب الخلافي من الآية، هو بيان ما تضمنه من أن العلماء قد جالوا بأفكارهم في ميدان فسيح، وأن أمثال هذه القضايا الواردة في كتاب الله تعالى، يمكن أن تفهم على هذا الوجه من التمثيل، كما يمكن أن تفهم على وجه الحقيقة، ولكل وجهة هو موليها، فمن كان قلبه مستريحًا إلى هذا الوجه أخذ به، ومن كان قلبه مستريحًا إلى الوجه الآخر أخذ به، وهذا سر من أسرار عظمة القرآن، حيث أنزل بأسلوب يصلح لكل من العامة والخاصة، ويستريح إليه صاحب الفطرة، كما يستريح إليه صاحب الفلسفة.

(١) الآية ٦ من سورة الانشقاق.

الفصل السابع

النفس المطمئنة .. وكيف تتحقق ؟

بينا فيما سبق أن الطمأنينة منزلة عليا من المنازل التي تترتب على الإيمان.

والآن نبين مبعث الطمأنينة التي بها تكون النفس مطمئنة، ومن تأمل كتاب الله تعالى وجده يرمي إلى هدفين عظيمين بهما تتحقق الطمأنينة للنفس:

أحدهما الطمأنينة بالعرفان.

والآخر الطمأنينة بالإحسان.

أما الطمأنينة بالعرفان فإنها هدف القرآن من كل ما يذكره عن الله ووحدانيته وصفات جلاله وجماله، وبديع قدرته، ودقيق صنعه، ومظاهر تقديره وتدبيره.

إنه يريد بذلك أن يغرس في نفس الإنسان بذرة الحقيقة الكبرى، وهي أن الله تعالى هو مصدر هذا الكون، ومرجع كل ما فيه، وأن بيده مقاليد السموات والأرض، علمًا، وتدبيرًا، وتصريفًا، وأن مثل الفضيلة والكمال مستمدة من أسمائه الحسنى.

يطمئن الإنسان إلى أن ربه هو الخلاق العظيم، حين يلتفت إلى مظاهر هذه الخالقية المبدعة في عالم الحيوان، وفي عالم النبات، وفي عالم البحار، وفي عالم الجبال، وفي عالم الكواكب، وفيما للأشياء من خواص، وما أودعت من قوى، ولذلك يقول له القرآن الكريم:

﴿ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ بِالْحَقِّ تَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ، خَلَقَ الإِنسَانَ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ، وَالأَنْعَامَ خَلَقَهَا لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَافِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ، وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ، وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَى بَلَدٍ لَّمْ تَكُونُوا بَالِغِيهِ إِلاَّ بِشِقِّ الأَنفُسِ إِنَّ رَبَّكُمْ لَرَؤُوفٌ رَّحِيمٌ، وَالْخَيْلَ وَالْبِغَالَ

وَالْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً وَيَخْلُقُ مَا لاَ تَعْلَمُونَ، وَعَلَى اللهِ قَصْدُ السَّبِيلِ وَمِنْهَا جَائِرٌ وَلَوْ شَاءَ لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ، هُوَ الَّذِي أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لَكُم مِّنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ، يُنبِتُ لَكُم بِهِ الزَّرْعَ وَالزَّيْتُونَ وَالنَّخِيلَ وَالأَعْنَابَ وَمِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ، وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومُ مُسَخَّرَاتٌ بِأَمْرِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ، وَمَا ذَرَأَ لَكُمْ فِي الأَرْضِ مُخْتَلِفاً أَلْوَانُهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لِّقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ، وَهُوَ الَّذِي سَخَّرَ الْبَحْرَ لِتَأْكُلُواْ مِنْهُ لَحْماً طَرِيّاً وَتَسْتَخْرِجُواْ مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى الْفُلْكَ مَوَاخِرَ فِيهِ وَلِتَبْتَغُواْ مِن فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ، وَأَلْقَى فِي الأَرْضِ رَوَاسِيَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ وَأَنْهَاراً وَسُبُلاً لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ، وَعَلامَاتٍ وَبِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ، أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لاَّ يَخْلُقُ أَفَلا تَذَكَّرُونَ ﴾(١).

ويطمئن الإنسان إلى أن ربه هو المدبر الحكيم، حين يرى تصاريف هذا الكون، وما وضع لكل شيء فيه من سنن ونواميس لا تتحول ولا تتبدل، ولذلك يقول له القرآن الكريم:

﴿ إِنَّ رَبَّكُمُ اللهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يُدَبِّرُ الأَمْرَ مَا مِن شَفِيعٍ إِلاَّ مِن بَعْدِ إِذْنِهِ ذَلِكُمُ اللهُ رَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ أَفَلاَ تَذَكَّرُونَ ﴾، ﴿ هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُوراً وَقَدَّرَهُ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُواْ عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ مَا خَلَقَ اللهُ ذَلِكَ إِلاَّ بِالْحَقِّ يُفَصِّلُ الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴾(٢)، ﴿ هُوَ الَّذِي يُسَيِّرُكُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ ﴾(٣)، ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ الْجَوَارِ فِي الْبَحْرِ كَالأَعْلامِ، إِن يَشَأْ يُسْكِنِ الرِّيحَ فَيَظْلَلْنَ رَوَاكِدَ عَلَى ظَهْرِهِ ﴾(٤)، ﴿ قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ أَمَّن يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالأَبْصَارَ وَمَن يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَمَن يُدَبِّرُ الأَمْرَ فَسَيَقُولُونَ اللهُ فَقُلْ

---

(١) الآيات من ٣ – ١٧ من سورة النحل.

(٢) الآية ٣ ثم الآية ٥ من سورة يونس.

(٣) الآية ٢٢ من سورة يونس.

(٤) الآيتين ٣٢ و ٣٣ من سورة الشورى.

﴿أَفَلاَ تَتَّقُونَ، فَذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمُ الْحَقُّ فَمَاذَا بَعْدَ الْحَقِّ إِلاَّ الضَّلاَلُ فَأَنَّى تُصْرَفُونَ﴾(١).

إلى غير ذلك من الآيات الكريمة التي نراها في كتاب الله تعالى مذكرة مبصرة، ونراها في كثير من الأحيان مذيلة بما يدل على الغاية منها، حيث تقول: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾، ﴿لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾، ﴿لِّقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ﴾، ﴿أَفَلاَ تَذَكَّرُونَ﴾، ﴿أَفَلاَ تَتَّقُونَ﴾، ﴿فَأَنَّى تُصْرَفُونَ﴾، فهي توجيهات إلى التفكر، والتعقل والتذكر، والتقوى والتثبت، وكلها سبل مفضية بصاحبها إلى معرفة الحقيقة في شأن الإله، والاطمئنان بهذه المعرفة إلى أنه هو كل شيء، وأن جميع ما سواه قائم به، محتاج إليه.

ويطمئن الإنسان إلى الفضيلة والمثل الرفيعة، حين يرى القرآن الكريم يصف الله تعالى بأوصاف الكمال الممثلة لجلاله وجماله، فهو «العليم، الحكيم، السميع، البصير، الرحمن، الرحيم، القوي، القدير، القابض، الباسط، الصبور، الشكور، الملك، القدوس، السلام، المؤمن، المهيمن، العزيز، الجبار، المتكبر، الخالق، البارئ، المصور» إلى غير ذلك من أسمائه جل وعلا، وكل منها ينبوع لمعناه، ومثل أعلى لمن احتذاه.

بيان ذلك: أن العلم مثلاً صفة من صفات الله تعالى، فهي صفة من صفات الكمال، وعرفان هذه الحقيقة له توجيهان للإنسان، توجيه إلى الله يفيد منه الإنسان طمأنينة إليه جل شأنه، وثقة به، حيث يوقن بأن الله تعالى مطلع على كل شيء كما يستعيذ به خوفًا أو حياء منه، ومصداق هذا وذاك مثل قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾(٢)، ﴿وَكَفَى بِاللَّهِ حَسِيبًا﴾(٣)، ﴿وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مُّقِيتًا﴾(٤)، ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ﴾(٥)، ﴿إِنَّ اللَّهَ لاَ يَخْفَى

---

(١) الآيتين ٣١ – ٣٢ من سورة يونس.
(٢) من الآية ١ من سورة النساء.
(٣) من الآية ٦ من سورة النساء.
(٤) من الآية ٨٥ من سورة النساء.
(٥) الآية ١٤ من سورة الفجر.

عَلَيْه شَيْءٌ في الأَرْضِ وَلاَ في السَّمَاء ﴾[1]، إلى غير ذلك . . . والتوجيه الآخر هو توجيه إلى التكمل بالعلم والمعرفة، لأن المؤمن محب لله، أي منجذب إلى صفاته، متخلق بأخلاقه، فكلما أفاد علمًا أفاد كمالاً، وازداد من الله قربًا.

وقل مثل ذلك في صفة الرحمة الإلهية، فلها توجيه إلى الله ينشأ عنه الحب، ولها توجيه إلى التراحم بين الناس: «الراحمون يرحمهم الرحمن».

وكذلك صفة العزة، فكما أن العزة صفة لله، هي أيضًا صفة لرسوله وللمؤمنين، والعزة المحمودة هي العزة بالحق، وهي التي يتمثلها المؤمن صفة من صفات الجلال في الله، ويحتذيها بالنزول على أمر الله، والترفع عن كل ما ينهى الله عنه، أما العزة بالإثم فهي عزة الكافرين أو المفسدين: ﴿ بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا في عِزَّةٍ وَشِقَاقٍ ﴾[2]، ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَن يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ في الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيُشْهِدُ اللَّهَ عَلَى مَا في قَلْبِه وَهُوَ أَلَدُّ الْخِصَامِ، وَإِذَا تَوَلَّى سَعَى في الأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ وَاللَّهُ لاَ يُحِبُّ الفَسَادَ، وَإِذَا قِيلَ لَهُ اتَّقِ اللَّهَ أَخَذَتْهُ الْعِزَّةُ بِالإِثْمِ فَحَسْبُهُ جَهَنَّمُ وَلَبِئْسَ الْمِهَادُ ﴾[3].

وهكذا كلما درسنا صفة يتضمنها اسم من أسماء الله الحسنى، وجدناها مثلاً أعلى في معناها، ووجدنا لها إيحاء بالطمأنينة إلى الله، وإيحاء بتمثل كمال في الله، وكلاهما للمؤمن ثبات وتثبيت.

هذا كله في شأن طمأنينة العرفان، أي الطمأنينة الناشئة عن العلم، وحصول اليقين في القلب، ولاشك أن أعلى مراتب العلم هي العلم بالله، فلابد أن تكون أعلى مراتب الطمأنينة هي الطمأنينة إلى الله، ممن عرف الله.

. . . .

وأما الطمأنينة بالإحسان، فنقصد بها الطمأنينة بالطاعة، فإن العقيدة وإن بعثت الثقة فيمن يعتقد، لابد من العمل بمقتضاها حتى تستريح النفس إلى أنها قامت

---

(١) الآية ٥ من سورة آل عمران.

(٢) الآية ٢ من سورة ص.

(٣) الآيات من ٢٠٤ – ٢٠٦ من سورة البقرة.

بحق من تعتقده، ولم تخرج عليه بفسق عنه، أو عصيان له، مع الإصرار عن غفلة أو استكبار.

إن العصاة - وإن استمرءوا العصيان، وركنوا إلى أساليب اقتراف الذنوب - يكونون عادة في قلق واضطراب نفسي شديد، وتكون قلوبهم ممتلئة بالمخاوف، مشحونة بأسباب الانزعاج، أما العامل فإنه يجد للطاعة لذة، فإذا أذنب ثم تاب وجد للتوبة لذة، فهي خيوط تربطه بربه، وكلما كثرت هذه الخيوط كان بها متمسكًا بما يعصمه فيطمئن قلبه.

والقرآن الكريم كما يوجه النفوس إلى ما يبعث فيها طمأنينة العرفان، يوجه النفوس أيضًا إلى ما يبعث فيها طمأنينة الإحسان.

إن جميع أوامره ونواهيه لها هدف واحد، هو الوصول بالنفوس إلى أن تكون ذاكية مطهرة.

يقول الله تعالى: ﴿ **وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا، فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا، قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا، وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّاهَا** ﴾[١].

وتزكية الإنسان نفسه هي تنميتها، لأن الزكاة في الأصل هي النمو، كما يقال الزرع إذا نما وبورك فيه، وإنما تكون تنمية النفس بالأفعال وصالح الأعمال فتلك هي التزكية المقبولة عند الله، التي يترتب عليها هذا الفلاح المذكور في هذه الآية، وفي قوله تعالى: ﴿ **قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّى** ﴾[٢]. أما التزكية بمجرد القول فخرًا وتطولاً، فهي تزكية مذمومة منهي عنها، وفي ذلك يقول الله جل شأنه: ﴿ **أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يُزَكُّونَ أَنفُسَهُمْ بَلِ اللَّهُ يُزَكِّي مَن يَشَاءُ** ﴾[٣]، ويقول سبحانه: ﴿ **فَلا تُزَكُّوا أَنفُسَكُمْ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اتَّقَى** ﴾[٤].

وقد قابل الله تعالى بين التزكية والتدسية حيث يقول: ﴿ **وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّاهَا** ﴾ وأصله دسسها في المعاصي، فأبدل من إحدى السينين ياء، نحو:

---

(١) الآيات من ٧ - ١٠ من سورة الشمس.

(٢) الآية ١٤ من سورة الأعلى.

(٣) الآية ٤٩ من سورة النساء.

(٤) الآية ٣٢ من سورة النجم.

تظنيت، وأصله تظننت[١].

قال ابن قتيبة: يريد قد أفلح من زكى نفسه أي أنماها بالطاعة والبر والصدقة واصطناع المعروف، وقد خاب من دساها أي نقصها وأخفاها بترك عمل البر وركوب المعاصي، والفاجر أبداً خفي المكان، زمن المروءة، غامض الشخص، ناكس الرأس، فمرتكب الفواحش قد دس نفسه وقمعها، ومصطنع المعروف شهر نفسه ورفعها، وكانت أجواد العرب تنزل المربى بقاع الأرض لتشهر أماكنها للمعتفين - أي طالبي المعروف - وتوقد النيران للطارقين، وكانت اللئام تنزل الأولاج والأطراف والأهضام، لتخفي أماكنها على الطالبين، فأولئك اعلوا أنفسهم وزكوها، وهؤلاء أخفوا أنفسهم ودسوها[٢].

وقد أمر الله نبيه موسى عليه الصلاة والسلام بقوله: ﴿**اذْهَبْ إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى، فَقُلْ هَل لَّكَ إِلَى أَن تَزَكَّى**﴾[٣] أي تعمل بطاعة الله فتصير زاكياً، وفي القرآن الكريم: ﴿**وَمَن تَزَكَّى فَإِنَّمَا يَتَزَكَّى لِنَفْسِهِ**﴾[٤]، ﴿**وَسَيُجَنَّبُهَا الأَتْقَى، الَّذِي يُؤْتِي مَالَهُ يَتَزَكَّى، وَمَا لأَحَدٍ عِندَهُ مِن نِّعْمَةٍ تُجْزَى، إِلا ابْتِغَاء وَجْهِ رَبِّهِ الأَعْلَى، وَلَسَوْفَ يَرْضَى**﴾[٥]، ﴿**وَمَنْ يَأْتِهِ مُؤْمِناً قَدْ عَمِلَ الصَّالِحَاتِ فَأُوْلَئِكَ لَهُمُ الدَّرَجَاتُ الْعُلَى، جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَلِكَ جَزَاء مَن تَزَكَّى**﴾[٦].

ولاشك أن هذه كلها أخبار صادقة وثيقة، لأنها عن الله تعالى، فمن شأن المؤمن أن يطمئن إلى ما ترتبه على الإحسان والطاعة من جزاء ﴿**هَلْ جَزَاء الإِحْسَانِ إِلا الإِحْسَانُ**﴾[٧].

ولذلك كان رسول الله ﷺ يقول في دعائه: «رب أعط نفسي تقواها، وزكها أنت خير من زكاها، أنت وليها ومولاها»[٨].

---

(١) مفردات الراغب الأصفهاني - مادة (دسى).
(٢) إغاثة اللهفان لابن القيم ص ٢٩ طبعة الميمنية بمصر سنة ١٣٢٠م.
(٣) الآية ١٧ - ١٨ من سورة النازعات.
(٤) الآية ١٨ من سورة فاطر.
(٥) الآيات من ١٧ - ٢٠ من سورة الليل.
(٦) الآية ٧٥ من سورة طه.
(٧) الآية ٦٠ من سورة الرحمن.
(٨) مسلم عن زيد بن أرقم ك/ الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار ب/ التعوذ من شر ما عمل ومن شر ما لم يعمل (٤٨٩٩).

الفصل الثامن

موازنة نفسية .... بين أنواع القلوب

﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ وَلا نَبِيٍّ إِلا إِذَا تَمَنَّى أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ فَيَنسَخُ اللَّهُ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ ثُمَّ يُحْكِمُ اللَّهُ آيَاتِهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ، لِيَجْعَلَ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ فِتْنَةً لِّلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَالْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ وَإِنَّ الظَّالِمِينَ لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ، وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَيُؤْمِنُوا بِهِ فَتُخْبِتَ لَهُ قُلُوبُهُمْ وَإِنَّ اللَّهَ لَهَادِ الَّذِينَ آمَنُوا إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ، وَلا يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي مِرْيَةٍ مِّنْهُ حَتَّى تَأْتِيَهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً أَوْ يَأْتِيَهُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَقِيمٍ ﴾(١).

اتصل البحث في هذه الآيات الكريمة بنواح مختلفة: فمن الناس من بحثها من ناحية دلالتها على الفرق بين «الرسالة» و«النبوة» حيث عطف الله تعالى قوله: ﴿وَلا نَبِيٍّ﴾ على قوله: ﴿مِن رَّسُولٍ﴾ والعطف يقتضي المغايرة، ومنهم من بحثها من ناحية سبب النزول الذي جاءت به روايات مرسلة لم ترو من طريق متصل صحيح، وقد ذكروا هنا الفرية المشهورة التي تزعم أن رسول الله ﷺ قد أدخل عليه الشيطان كلامًا في تمجيد الأوثان فقرأه مع القرآن – وحاشاه وقد عصمه الله –، ومنهم من بحثها من ناحية قدرة الشيطان على الإضلال ومدى هذه القدرة.

ولا نكاد نجد من المفسرين من اهتم بأمر التقسيم الإلهي للقلوب، الذي أتى به القرآن الكريم في هذه الآيات، وتجلية ما يشتمل عليه من دراسة للنفس الإنسانية.

ولما كنا قد بينا في الفصل السابق أن مبعث الطمأنينة التي بها تكون النفس

(١) الآيات من ٥٢ – ٥٥ من سورة الحج.

مطمئنة إنما يرجع إلى «العرفان» و«الإحسان»، فلابد لنا من دراسة هذا التقسيم القرآني الذي هو الأساس الأول فيما ذهبنا إليه.

. . . .

إننا نجد هذه الآيات الكريمة تذكر أنواعًا ثلاثة من القلوب التي توجه إليها دعوات الحق والهدى عن طريق الرسالات والنبوات، لا فرق في ذلك بين الرسالة المحمدية وما قبلها، ويختلف موقفها من هذه الدعوة باختلاف طابعها أو طبيعتها، وهذه القلوب الثلاثة هي:

١- القلوب المريضة.

٢- القلوب القاسية.

٣- القلوب المخبتة.

فالقلوب المخبتة أي المطمئنة إلى الحق، الخاضعة له، العاملة بمقتضاه يقابلها أولاً: القلوب المريضة، وهي التي أصيبت بعلة جعلتها مختلة الإدراك، كما يصاب الإنسان بالمرض فيخيل إليه مرارة الحلو إذا ذاقه، أو يخيل إليه أن الواحد اثنان إذا نظر إليه، أو أن الصوت المطرب صوت مزعج إذا استمع إليه، إلى غير ذلك من مظاهر الاعتلال والاختلال، ويقابلها ثانيًا: القلوب القاسية، وهي الميتة المتحجرة التي انقطع الأمل من شفائها، وعودة قوة الإدراك إليها، كما ينقطع الأمل من الأجسام الميتة.

وقد بين الله تعالى أن إخبات القلوب مرتبة يتوصل إليها بالعلم بالشيء في ذاته، والعلم بأنه من مصدر مقدس، حيث يقول جل شأنه: **﴿وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَيُؤْمِنُوا بِهِ فَتُخْبِتَ لَهُ قُلُوبُهُمْ﴾**(١).

الإخبات للحق ثمرة من ثمرات العلم بأنه حق، وبأنه صادر من الله، وفي هذا إشارة إلى أن الإنسان قد يتقبل الحق إذا أدركه وتبين أمره في ذاته، ولكنه إنما

---

(١) الآية ٥٤ من سورة الحج.

يخضع له على سبيل الإخبات والقنوت[1] إذا أيقن بأن مصدره هو المصدر الموثوق به، الواجب الاحترام.

وقد تحدث القرآن الكريم عن الذين في قلوبهم مرض في مواضع عدة: فمنهم من يرجع مرض قلبه إلى النفاق والرغبة في إرضاء فريقين، وهؤلاء هم الذين يقول الله تعالى فيهم: ﴿ **وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالْيَوْمِ الآخِرِ وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ، يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَمَا يَخْدَعُونَ إِلاَّ أَنفُسَهُم وَمَا يَشْعُرُونَ، فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضاً وَلَهُم عَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ** ﴾[2]، ومنهم المريض بداء الجبن لا يرى بأسًا من أن يجامل على حساب الحق ضمانًا لمستقبل يتوهمه، وهؤلاء هم الذين يقول الله عز وجل فيهم: ﴿ **فَتَرَى الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يُسَارِعُونَ فِيهِمْ يَقُولُونَ نَخْشَى أَن تُصِيبَنَا دَائِرَةٌ فَعَسَى اللَّهُ أَن يَأْتِيَ بِالْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِّنْ عِندِهِ فَيُصْبِحُواْ عَلَى مَا أَسَرُّواْ فِي أَنْفُسِهِمْ نَادِمِينَ** ﴾[3]، ومن هؤلاء أيضًا المذكورون في قوله تعالى: ﴿ **إِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ غَرَّ هَؤُلاءِ دِينُهُمْ** ﴾[4]، ومنهم المريض بداء الشهوة والتسقط لكل ما يشبعها ولو كان من طريق حرام، وهؤلاء هم الذين حذر الله منهم نساء النبي حيث يقول: ﴿ **فَلا تَخْضَعْنَ بِالْقَوْلِ فَيَطْمَعَ الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ وَقُلْنَ قَوْلاً مَّعْرُوفاً** ﴾[5]، فالمرض هنا هو مرض الفسق والفجور، وقد حذر الله النساء من أن يتحدثن بما من شأنه أن يطمع هؤلاء فيهن من كلام يقلنه، أو طريقة يلقين بها هذا الكلام، وهي طريقة التكسر في الحديث، والليان في المنطق، فإن في ذلك إغراء وإطماعًا لمرضى القلوب، ولا يعني هذا أن تلجأ المرأة إلى طريقة التخشين في نوع ما يقال أو في هيئة توجيهه، لأن الله يقول: ﴿ **وَقُلْنَ قَوْلاً مَّعْرُوفاً** ﴾، والقول المعروف من المرأة هو القول الذي تجرى العادة به من الحرائر المهذبات الصالحات، في خفر

---

(١) كل من «الإخبات» و«القنوت» هو لزوم الطاعة مع الخضوع والخشوع في صدق وإخلاص ...

(٢) الآيات من ٨ - ١٠ من سورة البقرة.

(٣) الآية ٥٢ من سورة المائدة.

(٤) الآية ٤٩ من سورة الأنفال.

(٥) الآية ٣٢ من سورة الأحزاب.

وحياء، لا في دعاء ونداء، وشتان بين المتحدثة في رقة وأدب والمتحدثة في خلاعة واجتراء وتهتك في الكلام.

ومنهم المريض بداء الشك والحيرة،وهؤلاء هم الذين يقول الله عز وجل فيهم: ﴿ **وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْساً إِلَى رِجْسِهِمْ وَمَاتُواْ وَهُمْ كَافِرُونَ** ﴾[١]، وضمير الفاعل في قوله: ﴿ **فَزَادَتْهُمْ** ﴾ يرجع إلى السورة في قوله تعالى قبل ذلك: ﴿ **وَإِذَا مَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ** ﴾. ومثل ذلك قوله تعالى: ﴿ **وَلِيَقُولَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَالْكَافِرُونَ مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَذَا مَثَلاً** ﴾[٢]، غير أن الآية السابقة تصور الشاكين، وهذه الآية تصور المشككين.

وبهذا كله يتبين أن مرض القلوب، وأن تنوع منه ما يرجع إلى الرذائل والشهوات، ومنه ما يرجع إلى الشكوك والشبهات، وكل ذلك قد استوفاه القرآن الكريم ذكراً وبياناً، وتفريعًا وتمثيلاً.

وكما ذكر القرآن الكريم مرضى القلوب في عدة مواضع، ذكر القسوة والقساة في مواضع أخرى، فمن ذلك ما وصف الله به بني إسرائيل حيث يقول بعد أن قص معجزة من المعجزات التي أيد بها نبيهم، فلم يؤمنوا بها: ﴿ **ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِّن بَعْدِ ذَلِكَ فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً وَإِنَّ مِنَ الْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ الأَنْهَارُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ الْمَاءُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ** ﴾[٣].

وقد أجمعت الدراسات النفسية للشعوب على أن اليهود يمتازون بنوع من العناد والتحجر والقسوة القلبية عن قبول الحق، وعن الموعظة، ولا عجب فهم الذين يقول الله عز وجل فيهم: ﴿ **فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَاقَهُمْ لَعَنَّاهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَاسِيَةً يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِ وَنَسُواْ حَظّاً مِّمَّا ذُكِّرُواْ بِهِ وَلاَ تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَىَ خَآئِنَةٍ مِّنْهُمْ إِلاَّ قَلِيلاً مِّنْهُمُ** ﴾[٤]، ولعلهم - بل - إنهم - لهم أيضاً الذين

(١) الآية ١٢٥ من سورة التوبة.
(٢) الآية ٣١ من سورة المدثر.
(٣) الآية ٧٤ من سورة البقرة.
(٤) الآية ١٣ من سورة المائدة.

حذر الله المؤمنين من أن يكونوا مثلهم حيث يقول: ﴿ أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ وَلَا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ ﴾(١).

وينبغي أن نلتفت هنا إلى موازنة هذه الآية بين المؤمنين الذين تناشدهم أن تخشع قلوبهم لذكر الله وما نزل من الحق، والذين طال عليهم الأمد فقست قلوبهم، فإن في ذلك إفادة لمعنى التقابل بين خشوع القلوب وإخباتها، وقسوة القلوب وتحجرها.

وإن هذه المقابلة لتبدو على أتم ما تكون وضوحًا في قوله تعالى: ﴿ أَفَمَن شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ مِّن رَّبِّهِ فَوَيْلٌ لِّلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُم مِّن ذِكْرِ اللَّهِ أُولَٰئِكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴾(٢).

....

والخلاصة: أن الآيات الكريمة التي صدرنا بها هذا الفصل توازن موازنة نفسية دراسية بين أنواع القلوب التي يعرض عليها الحق وتدعى إليه، وأنها تجعل إخبات القلب أي خشوعه وخضوعه في صدق وإخلاص ثمرة من ثمرات العلم والإدراك، وترجع الشك والعصيان إلى ما يقابل ذلك من خلل يصيب الإدراك كما تصاب الحاسة المريضة، أو انطماس تام للحقيقة أمام القلب القاسي المتحجر، أو الميت الذي لم يعد فيه أي أمل في التعقل والتجاوب.

ولذلك نستطيع – كما قلنا من قبل: أن الاطمئنان ينبعث عن العرفان والإحساس – أن نقول الآن: إن القلق والتزلزل والجحود والعصيان إنما تنبعث عن خلل يصيب القلوب، قد يصل بها إلى أن تفقد خاصتها من الإدراك السليم، والتوجيه إلى الصراط المستقيم.

ومن السهل بعد هذه الدراسة أن ندرك أن هذه الآيات الكريمة في واد، وما

(١) الآية ١٦ من سورة الحديد.

(٢) الآية ٢٢ من سورة الزمر.

زعموه من سبب لنزولها في واد آخر، فليس هناك زيادة من الرسول على القرآن، ولا تمجيد كالذي زعموه للغرانيق أو الأوثان، إنما يريد الله تعالى أن يلفت رسوله ﷺ، إلى سنة من سننه الإلهية في نفوس خلقه أمام دعوات الحق، ورسالات الإصلاح، فهو يقول:

لقد جرت سنتنا في هذا الشأن من شئون البشر أن نوحي إلى الأنبياء والرسل بالحق، وأن نبعث منهم إلى الناس هداة مصلحين، فيكون لكل منهم بذلك رسالة وأمنية يتمناها ويتعلق قلبه بتحققها وتمامها، ولكن الشيطان الذي هو عدو الناس الأكبر، والداعية الذي قضينا بإبقائه وإنظاره إلى يوم يبعثون، ليتحقق التكليف والاختبار - لا يترك هذه الأمنية تتحقق في يسر، بل يلقي في سبيلها العراقيل، وينصب للناس من دونها الأحابيل، فيكون لذلك بحسب سنتنا آثار عدة:

فأما أثر ذلك في عاقبة الحق والباطل، ﴿**فَيَنسَخُ اللَّهُ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ**﴾، أي يزيله ويبطله بتبيين فساده، وكشف عواره، ثم يحكم الله آياته، أي تمر فترة هي فترة البيان والكشف ووصول الناس بالتفكر والتدبر إلى إدراك الزيف الذي ألقى به الشيطان، فيعصم الله بذلك ما أنزله من الحق والهدى والله عليم بما يلقيه الشيطان من العراقيل والصعاب، حكيم يعرف كيف يزيله ويعصم آياته.

وأما أثر ذلك في الاختبار والابتلاء، فأن يتصارع الحق والباطل أمام القلوب والأفكار، فتفتتن بالباطل قلوب مريضة أو قاسية، ويعرف الحق أهل العلم معرفة آتية من قبل ملاحظة هذه المعركة الحامية، وتبين عناصرها وما فيها من عبر، فيؤمنوا به، وتخشع له قلوبهم خشوعًا صادقًا لأنه عن مكابدة وتجربة وملاحظة.

وأما أثر ذلك في المختبرين، فالهداية إلى الصراط المستقيم للمؤمنين، وحياة الشك والمرية للكافرين: ﴿**وَإِنَّ اللَّهَ لَهَادِ الَّذِينَ آمَنُوا إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ، وَلَا يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي مِرْيَةٍ مِّنْهُ حَتَّى تَأْتِيَهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً أَوْ يَأْتِيَهُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَقِيمٍ**﴾[1].

---

(١) الآيتين ٥٤ - ٥٥ من سورة الحج.

الفصل التاسع

نفوس ودروس من القرآن والسنة

في بعض ما يروى عن رسول الله ﷺ، أنه قال: «أصدق الأسماء حارث وهمام».

قالوا: والحارث الكاسب العامل، والهمام المريد القاصد.

يريد رسول الله ﷺ أن الإنسان بمقتضى فطرته لا ينفك عن أن يكون مريداً، لأنه حي له استمساك بحياته وتجاوب معها، ولابد له تبعًا لذلك من أن يكون ذا مراد يسعى إليه، ويعمل على تحقيقه، فإذا سمي إنسان باسم «الحارث» أو باسم «الهمام» فقد طابقت هذه التسمية وصفًا حقيقيًا فطريًا في الإنسان، فيكون قد سمي بما فيه حقًا وصدقًا.

ومن هذا القول النبوي الكريم، ينبع أصل نفسي تربوي عظيم، التفت إليه علماء النفس والتربية أخيرًا، ذلك هو أن الإنسان مادام حيًا فلابد له من إرادة وعمل – إرادة ما، وعمل ما – فإذا لم تتجه نفسه إلى الحق، اتجه إلى الباطل، وإذا لم تشتغل نفسه بعمل الخير، انحدر إلى عمل الشر، فلا واسطة، لأن الواسطة هي فراغ النفس، وتعطل صفات الفطرة. والغرض أن الحي «حارث» بفطرته، أي عامل كاسب، و«همام» بفطرته، أي مريد قاصد.

ولما كان فراغ النفوس محالاً، حرص علماء النفس وحذاق المربين على أن يشغلوا الشباب بالأعمال الهادفة، وألا يتركوهم ينحدرون بحكم هذه الفطرة إلى الأعمال الهازلة أو التافهة أو الفاسدة، كما حرصوا على أن يملأوا القلوب بالعقائد الصحيحة، والمبادئ السليمة، والمثل القويمة، لئلا يندفعوا إلى ما يناقض ذلك، فإن الذي لا يؤمن لابد أن يجحد، والذي لا يمتلئ قلبه بالفضيلة لا يلبث أن يقع في مهاوي الرذيلة، والذي لا يسير في الطريق المستقيم، لابد أن يسير في طريق

الضلال أو الفساد .

ومن هنا نشأت فكرة اتخاذ الأندية لتنظيم لهو برئ للشباب، ونشأت فكرة تعليم الرياضة وشغل ذوي الأجسام الصحيحة بها لكي لا يستغلوا فراهة أجسامهم، وصحة أبدانهم فيما يعود عليهم أو على المجتمع بالشر والفساد. ونشأت تبعًا لذلك في المدارس والجامعات وجوه النشاط الجماعي، ونشأت في المجتمعات فكرة التعاون والترغيب في عمل الخير، لئلا يتجه فائض الأغنياء إلى مصارف أخرى ترضي الشيطان.

ومن هنا أيضًا يرى الحذاق من أرباب القيادة والتوجيه أن يغرسوا في النفوس بذور الإيمان بدعواتهم، والثقة بنزاهة أغراضهم وأعمالهم، وبأنهم على صراط مستقيم، لكي لا يدرك النفوس فراغ منهم، فتقصد إلى ملء هذا الفراغ بغيرهم، وإلى التماس الزاد القلبي الإنساني من دعوة غير دعوتهم، وفكرة غير فكرتهم.

كل هذا توحي به إشارة الرسول صلوات الله وسلامه عليه إلى أن الإنسان « حارث همام ».

وفي القرآن الكريم آيات يفهم منها هذا النظر الذي نظرناه :

فالله سبحانه وتعالى يقول : ﴿ **فَذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمُ الْحَقُّ فَمَاذَا بَعْدَ الْحَقِّ إِلاَّ الضَّلاَلُ فَأَنَّى تُصْرَفُونَ** ﴾[1]، وذلك واضح في أنه لا واسطة، وأن من انصرف عن الحق عامداً أو غير عامد، فقد وقع في الضلال معذوراً أو غير معذور.

ويوضحه قوله تعالى في سورة الحمد : ﴿ **اهدنَــا الصِّرَاطَ المُستَقيمَ، صِرَاطَ الَّذينَ أَنعَمتَ عَلَيهِمْ غَيرِ المَغضُوبِ عَلَيهِمْ وَلاَ الضَّالِّينَ** ﴾[2].

فالصراط المستقيم واحد خصص أولاً « بأل » التي للتعريف والعهد، ثم خصص بالنعت الكاشف الموضح عن طريق إثبات أنه هو صراط المنعم عليهم، ونفي أن

---

(١) الآية ٣٢ من سورة يونس.

(٢) الآيتين ٦ ، ٧ من سورة الفاتحة.

يكون هو صراط المعاندين الذين حادوا عن الحق عمداً، أو الضالين الذين انحرفوا عنه جهلاً.

وإذن فمن ترك الصراط المستقيم، فقد حاد عنه إلى صراط الجاهلين، أو صراط المعاندين.

ويقول الله جل شانه: ﴿**وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ الرَّحْمَنِ نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطَاناً فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ**﴾(١).

وقد جاءت هذه الآية بأسلوب الشرط والجزاء، وهما كالمقدمة والنتيجة، والمعنى الذي نريد أن نلفت إليه هو أن الله تعالى يقابل بين الحق والباطل، والخير والشر، والصلاح والفساد، على هذا النحو من الإيجاز مقابلة يفهم منها كل ذي عقل سليم أنه لا واسطة ولا فراغ، فالإنسان إما في هذا الجانب أو ذاك.

هذا هو المعنى النفسي التربوي الذي يقرره القرآن الكريم ويبني عليه، وتنبئ عنه السنة وتومئ إليه، وإن كان يعد جديداً عند الذين يغفلون عما عندنا، وتنخطف أبصارهم لما يرد علينا من غيرنا.

وللقرآن الكريم في الانتفاع بهذه الفطرة التي تهدي إليها دراسة النفس الإنسانية، نهج مرسوم، والسنة مقفية على أثره.

انظر إلى قوله تعالى: ﴿**فَاصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا وَمِنْ آنَاءِ اللَّيْلِ فَسَبِّحْ وَأَطْرَافَ النَّهَارِ لَعَلَّكَ تَرْضَى**﴾(٢)، فإن الله تعالى يأمر رسوله ﷺ بأن يصبر ويسبح بحمده في أول النهار وفي آخره، ومن آناء الليل، وفي أطراف النهار، أي أنه يدعوه إلى أن يكون ذاكرًا ربه، مسبحًا بحمده في غالب أوقاته، لا يغفل عن ذلك، لكي لا يترك الفرصة لشواغل النهار المادية، أو لوساوس الليل الشيطانية، في أن تنشد فراغًا من قلبه فتملأه وتسيطر عليه.

---

(١) الآية ٣٦ من سورة الزخرف.

(٢) الآية ١٣٠ من سورة طه.

فالآية تجعل الصبر والتسبيح بحمد الله، أي استشعار عظمته وجلاله، واعتقاد إيثاره على جميع ما سواه، هما الحصانة من التأثر بقالة السوء، يلقى بها الأعداء تثبيطًا للمصلحين، وإرجافًا عليهم، وترشد إلى أن هذا هو السبيل المرجو إلى رضا النفس، واطمئنان القلب.

فإذا قال قائل: كيف يتصور أن يظل الإنسان طول نهاره، ومن آناء ليله ذاكرًا مسبحًا، قلنا: إن الذكر والتسبيح لا يراد بهما عمل اللسان فحسب، ولكن يراد بهما ذكر القلب وتسبيح القلب، والمرء قادر على أن يجعل عمله حين يعمل، ونشاطه حين ينشط، وسكونه حين يسكن، ذكرًا لله، وتسبيحًا لله، إذا قصد بكل ذلك السير على الصراط المستقيم، وإتباع سبيل المؤمنين، وبذلك يمتلئ قلبه بالله، فلا يجد الشيطان منه فراغًا ينفذ إليه.

وقريب من هذا قوله تعالى:

﴿ وَأَقِمِ الصَّلاَةَ طَرَفَيِ النَّهَارِ وَزُلَفاً مِّنَ اللَّيْلِ إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ ذَلِكَ ذِكْرَى لِلذَّاكِرِينَ ﴾[1].

فليست الصلاة هي تلك المعروفة فقط، ولكن كل تفكير في الله صلاة، وكل اتجاه إلى الله صلاة، وقوله تعالى: **﴿ إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ ﴾** تعبير شامل للمعنى الذي ذكرناه، وهو أن الحسنة تطرد السيئة، لأنها تحتل مكانها، وتدفعها عنه، وقوله جل شأنه: **﴿ ذَلِكَ ذِكْرَى لِلذَّاكِرِينَ ﴾**، تنبيه على أن المراد بذلك هو إصلاح النفس البشرية عن طريق تذكيرها بالله والعمل الصالح لتستحضره أبدًا، ولا تنفلت عنه فينزغها من الشيطان نزغ.

ويوضح ذلك قوله تعالى، معلمًا رسوله كيف يتقي نزغ الشيطان: **﴿ خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ، وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾**[2].

---

(١) الآية ١١٤ من سورة هود.

(٢) الآيتين ١٩٩ و ٢٠٠ من سورة الاعراف.

يقول له: سر في طريقك، والزم مثلك، ولا تعبأ بالجاهلين جهل سفاهة أو جهل عماية، وإذا راودتك الوساوس الشيطانية التي من شأنها أن تعتري البشر، فاذكر ربك واجعله حصنك ومعاذك، إنه تعالى سميع لمن يستعيذ به، عليم بذات نفسه.

وبعد هذا يذكر الله عز وجل هذا المبدأ مقارنًا في شأنه بين المتقين وإخوان الشياطين فيقول: ﴿إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَواْ إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِّنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُواْ فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ، وَإِخْوَانُهُمْ يَمُدُّونَهُمْ فِي الْغَيِّ ثُمَّ لاَ يُقْصِرُونَ﴾(١).

فنعلم أن الذكرى تنفع المؤمنين، وأن الاسترسال في العصيان بعد العصيان إنما هو مد من الشيطان.

وهذا هو السر في أن القرآن يذكر، ويضرب الأمثال، ويصرف الآيات، وينتهز كل فرصة تواتيه ليجتذب القلوب، ويسترعى الأنظار، لأنه دعوة واعية بصيرة، تعرف أن القلوب إذا لم تشغل بها شغلت بغيرها، فإن الفراغ محال.

....

والسنة المطهرة تقفي على أثر هذا النهج، فمما أثر من ذلك قوله ﷺ: «لا تفكروا في ذات الله، ولكن فكروا في صفاته».

إن رسول الله يعلم أنه لابد للإنسان من التفكير في الإله، ويعلم أن ذاته لا تدرك، كما قال في كتابه الكريم: ﴿لاَّ تُدْرِكُهُ الأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الأَبْصَارَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾(٢)، وإذن فلن ينال من يفكر في الذات إلا الحيرة والاضطراب، فلذلك صرف عن التفكير فيها إلى التفكير في صفاتها، والمراد آثار الصفات لا حقائقها أيضًا خلافًا لما يتخبط فيه كثير من المتفلسفين وأهل الكلام، وذلك ما يرشد إليه القرآن الكريم في مثل قوله تعالى: ﴿اللَّهُ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَاحَ فَتُثِيرُ سَحَاباً فَيَبْسُطُهُ فِي السَّمَاءِ كَيْفَ يَشَاءُ وَيَجْعَلُهُ كِسَفاً فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلالِهِ فَإِذَا أَصَابَ بِهِ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ، وَإِن كَانُوا مِن قَبْلِ

---

(١) الآيتين ٢٠١ و ٢٠٢ من سورة الأعراف.

(٢) الآية ١٠٣ من سورة الأنعام.

أن يُنَزَّلَ عَلَيْهِم مِّن قَبْلِه لَمُبْلِسِينَ، فَانظُرْ إِلَى آثَارِ رَحْمَتِ اللَّهِ كَيْفَ يُحْيِي الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ ذَلِكَ لَمُحْيِي الْمَوْتَى وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾(١).

ومما أثر من السنة أيضًا في ذلك ما رواه خالد بن الوليد رضي الله عنه من أنه أصابه أرق فقال له رسول الله ﷺ : «ألا أعلمك كلمات إذا قلتهن نمت ؟ قل: اللهم رب السموات السبع وما أظلت، ورب الأرضين وما أقلت، ورب الشياطين وما أضلت، كن لي جارًا من شر خلقك أجمعين، أن يفرط على أحد منهم أو يطغى: عز جارك، وتبارك أسمك».

لماذا أرق خالد ؟ لابد أن يكون قد أدركه تفكير ما أقض مضجعه، ولابد أن يكون رسول الله ﷺ، قد عرف لون هذا التفكير أو لمحة فراسة مما يعرفه من أحوال خالد، لذلك أرشده إلى دعاء خاص فيه توجيه إلى فكره عن الله وقدرته وعظمته، وخضوع كل شيء لجلاله وربوبيته، ثم عن جوار الله وحصانته، فإذا استبدل خالد بالتفكير الذي كان يؤرقه هذا التفكير، فلا شك أنه يطمئن قلبًا، ويسري إليه سكون الإيمان فينام آمنًا مطمئنًا.

فانظر كيف أدرك الرسول ﷺ بثاقب بصره أن التفكير المقلق لا يطرده إلا التفكير المطمئن، فلم يقل لخالد: أترك التفكير الذي فكرت، وإلا لكان أمرًا سلبيًا لا يؤدي إلى الغاية، ولكنه وجهه توجيهًا إيجابيًا إلى دعاء فيه إيحاء، ومن ثم أمن فنام.

---

(١) الآيات من ٤٨ – ٥٠ من سورة الروم.

الفصل العاشر

موازنة بين النفس المطمئنة والنفس اللوامة

النفس اللوامة: وردت «اللوم» في مواضع كثيرة من الكتاب العزيز على تصاريف مختلفة، مثل قوله تعالى حكاية عن امرأة العزيز: ﴿ **فَذَلِكُنَّ الَّذِي لُمْتُنَّنِي فِيهِ** ﴾(١)، والمراد عذلهن إياها في مراودتها يوسف عن نفسه، ومثل قوله تعالى: ﴿ **فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَلاوَمُونَ** ﴾(٢)، ومثل قوله تعالى: ﴿ **فَالْتَقَمَهُ الْحُوتُ وَهُوَ مُلِيمٌ** ﴾(٣) منه ألام يليم إذا فعل ما يستحق عليه اللوم.... إلى غير ذلك.

وجاء التعبير «بالنفس اللوامة» في موضع واحد من القرآن الكريم هو قوله تعالى: ﴿ **لا أُقْسِمُ بِيَوْمِ الْقِيَامَةِ، وَلا أُقْسِمُ بِالنَّفْسِ اللَّوَّامَةِ** ﴾(٤)، وقد اختلف العلماء في المراد بهذه النفس:

فقال بعضهم: هي النفس المتقلبة المتلونة، وسميت بذلك لكثرة تلومها وترددها، فإنه يقال تلوم في الأمر إذا تمكث فيه وتمهل(٥).

ثم يقول أصحاب هذا الرأي: «أن النفس بهذا المعنى من أعظم آيات الله فإنها مخلوق من مخلوقاته تتقلب وتتلون في الساعة الواحدة فضلاً عن اليوم والشهر ألوانًا ملونة، فتذكر وتغفل، وتلطف وتكثف، وتحب وتبغض، وتفرح وتحزن، وترضى وتغضب، وتطيع وتعصى إلى أضعاف ذلك مضاعفة لا يحصيها إلا الذي فطرها(٦).

---

(١) الآية ٣٢ من سورة يوسف.
(٢) الآية ٣٠ من سورة القلم.
(٣) الآية ١٤٢ من سورة الصافات.
(٤) الآيتان ١ و ٢ من سورة القيامة.
(٥) مجلة منبر الإسلام – العدد التاسع – السنة ١٧ – رمضان ١٣٧٩هـ.
(٦) ص ١٨ من كتاب سر الروح للبقاعي.

وهذا المعنى وإن كان من ظواهر النفوس حقًا، لا يتمشى مع جو القسم الذي أقسم به الله، فإن الله تعالى أقسم بشيئين هما يوم القيامة، والنفس اللوامة، وذلك يوحي بأن هناك معنى جامعًا بين هذين المقسم بهما، حتى حسن واتجه الجمع بينهما، فما هو المعنى الجامع بين يوم القيامة والنفس المترددة المتلونة ؟ .

وقد يرد على هذا المعنى أيضًا أن اللفظ إذا كان مأخوذًا من « تلوم » كان ينبغي أن يجيء التعبير « ولا أقسم بالنفس المتلومة » .

ولو أننا استطعنا أن نتكلف لإصلاح هذا بأن نقول : إنه من لوم بمعنى تلوم كما يقال فكر بمعنى تفكر، فإنه يبقى أن التردد ليس من معاني التلوم وإنما هو لازم له، وأما معناه الحقيقي المباشر فهو التمهل والتريث .

لذلك نميل إلى رفض هذا القول، ولكننا مع ذلك نستطيع أن ننتفع بما ذكرناه من أن لوم بمعنى تلوم فنقول : أن من معاني التلوم، تتبع الداء ليعرف مكانه، وهذا يناسب معناه المشهور الذي هو التمهل والتمكث والتروي، وإذن فالله تعالى يقسم بالنفس اللوامة، من لوم بمعنى تلوم، وهي النفس المتتبعة الفاحصة التي تنظر في الأمور وتتعمق بها لتصل بالمقدمات إلى النتائج، وبالمعلومات إلى المجهولات، وتستدل بالأوائل على الأواخر والعواقب .

وهذا المعنى جيد، وأن لم أعلم أحدًا قاله، فإن النفس الإنسانية لها هذه الخاصية، أي خاصية تدبر العواقب وتقدير المسئوليات، وذلك هو الذي عبر عنه بالأمانة على ما شرحناه حين تحدثنا في معنى قوله تعالى : ﴿ **إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنسَانُ** ﴾[1]، فالإنسان وحده هو الذي حمل الأمانة وكان مناسبًا لها دون غيره من خلق الله، والأمانة هي المسئولية وتقليب الأمور على وجوهها وتدبر عواقبها، والتلوم بمعنى التتبع والفحص ليعرف داء الشيء ومكانه، مما يتناسب مع هذا دون شك .

(١) الأحزاب : ٧٢ .

والأمر الجامع بين النفس اللوامة – على هذا المعنى – وبين يوم القيامة، هو أن كلا منهما غاية لمعرفة الحقيقة وانكشاف الواقع أمام الإنسان، وقد بين القرآن الكريم أن يوم القيامة هو يوم الفصل وتبين الحقائق التي كان الناس يختلفون عليها، وذلك في مثل قوله تعالى: ﴿ وَأَقْسَمُواْ بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لاَ يَبْعَثُ اللَّهُ مَن يَمُوتُ بَلَى وَعْداً عَلَيْهِ حَقّاً وَلَـكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يَعْلَمُونَ، لِيُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي يَخْتَلِفُونَ فِيهِ وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ كَفَرُواْ أَنَّهُمْ كَانُواْ كَاذِبِينَ ﴾[1].

كما بين القرآن الكريم أن على النفوس البشرية أن تتذكر وتتدبر لتعمل ما هو الأصلح، وذلك في مثل قوله تعالى: ﴿ وَاتَّبِعُوا أَحْسَنَ مَا أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ بَغْتَةً وَأَنتُمْ لا تَشْعُرُونَ، أَن تَقُولَ نَفْسٌ يَا حَسْرَتَى عَلَى مَا فَرَّطتُ فِي جَنبِ اللَّهِ ﴾[2]، وقوله تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَلْتَنظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ ﴾[3].

وقال أكثر العلماء: أن النفس اللوامة هي التي تلوم صاحبها دائمًا وتحاسبه: لم فعلت كذا وكان عليك أن تفعله ؟ ولم تركت كذا وكان عليك ألا تتركه ... ونحو ذلك.

والأمر الجامع بين يوم القيامة والنفس اللوامة على هذا المعنى هو أن كلا منهما موقف للحساب، فالنفس اللوامة تحاسب صاحبها قبل أن يحاسب، ولذلك قال رسول الله ﷺ: «الكيس من دان نفسه وعمل لما بعد الموت، والعاجز من أتبع نفسه هواها وتمنى على الله»[4] – قال ابن القيم: «دان نفسه أي حاسبها، وذكر الإمام أحمد عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنه قال: حاسبوا أنفسكم قبل أن تحاسبوا، وزنوا أنفسكم قبل أن توزنوا» ... وقال الحسن: المؤمن قوام على نفسه يحاسب نفسه لله، وإنما خف الحساب يوم القيامة على قوم حاسبوا أنفسهم في الدنيا، وإنما شق الحساب يوم القيامة على قوم أخذوا هذا الأمر من غير محاسبة. إن

---

(١) الآيتان ٣٨ – ٣٩ من سورة النحل.
(٢) الآيتان ٥٥ و ٥٦ من سورة الزمر.
(٣) الآية ١٨ من سورة الحشر.
(٤) الترمذي عن شداد بن أوس ك / صفة القيامة والرقائق والورع ب / منه (٢٣٨٣).

المؤمن يفجأ بالشيء يعجبه فيقول: والله إني لاشتهيتك وإنك لمن حاجتي، ولكن والله ما من صلة إليك، هيهات حيل بيني وبينك، ويفرط منه الشيء فيرجع إلى نفسه فيقول: ما أردت إلى هذا، مالي ولهذا، والله لا أعود إلى هذا أبداً، إن المؤمنين قوم أوقفهم القرآن وحال بينهم وبين هلكتهم، إن المؤمن أسير في الدنيا يسعى في فكاك رقبته، لا يأمن شيئًا حتى يلقى الله، يعلم أنه مأخوذ عليه في سمعه وفي بصره وفي لسانه وفي جوارحه، مأخوذ في ذلك كله، وقال مالك بن دينار: رحم الله عبداً قال لنفسه: ألست صاحبة كذا ؟ ألست صاحبة كذا ؟ ثم زمها، ثم خطمها، ثم ألزمها كتاب الله عز وجل، وكان لها قائداً[1].

ولقد أردت بالتوسع في إيراد هذا النص بيان هذا الرأي بلغة ابن القيم، فإني وجدتها مفصحة عنه أكمل إفصاح.

....

وفي الموازنة بين «النفس المطمئنة» و«النفس اللوامة» يقول الراغب الأصفهاني في مفرداته: وقوله تعالى: ﴿ **وَلَا أُقْسِمُ بِالنَّفْسِ اللَّوَّامَةِ** ﴾ قيل هي النفس التي اكتسبت بعض الفضيلة فتلوم صاحبها إذا ارتكب مكروهًا، فهي دون النفس المطمئنة، وقيل: بل هي النفس التي قد اطمأنت في ذاتها، وترشحت لتأديب غيرها فهي فوق النفس المطمئنة.

فالجزء الأول من هذا النص يمثل الرأي الذي ذكرناه سابقًا، أما الجزء الثاني منه فيمثل رأيًا آخر هو أن النفس اللوامة، ليست هي التي تلوم صاحبها، ولكن هي النفس الصالحة في ذاتها التي ترى من واجبها أن تقوم بلوم غيرها، وتلك هي خليقة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

ولكن هذا الرأي الأخير لا يبدو مستقيمًا، فإن الله تعالى إنما يحدث عن النفس وما يعتلج في داخلها، وما لها من صفات يترتب عليها مسلك صاحبها فيما يخصه، وليس المقام مقام التحدث عن اللائمين لغيرهم حسبة وتحقيقًا لفريضة

---

(١) ص ٤٤ من كتاب إغاثة اللهفان لابن القيم طبع المطبعة الميمنية المصرية بالقاهرة سنة ١٣٢٠هـ.

الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

....

ويتبين لنا من هذا كله أن القرآن الكريم يلفت الأنظار بهذا القسم العظيم إلى لون من ألوان النفوس البشرية، هو تلك النفوس التي لم تتمحض للخير تماماً، ولم تتمحض للشر تماماً، وإنما هي وسط بين بين، تنساق مع الطبيعة الإنسانية في ضعفها أحياناً، ولكنها تفيق ولا تسترسل وتراجع ما كان منها، وتلتمس التطهر منه بالندم عليه.

وهذا النوع من النفوس، أو بعبارة أخرى، هذا الاتجاه النفسي إلى التهذب وإلى التطهر، هو الذي يرمى القرآن إلى إيجاده وإبرازه فهو الوسط الذي لا تكاد تخرج الطبيعة الإنسانية في أحسن صور صلاحها عنه، والله تعالى يقول في صفات المتقين: ﴿ **وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُواْ فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُواْ أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُواْ اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُواْ لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلاَّ اللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّواْ عَلَى مَا فَعَلُواْ وَهُمْ يَعْلَمُونَ، أُوْلَئِكَ جَزَآؤُهُم مَّغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَجَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ** ﴾[1].

فالله تعالى لا يصف المؤمنين المتقين بأنهم الذين لا تصدر منهم الذنوب أبداً، ولكن يصفهم بأنهم الذين يراجعون أنفسهم إذا وقعوا بحكم طبيعتهم وفطرتهم الإنسانية في ذنب من الذنوب.

وسبحان الحكيم العليم بذات الصدور، ﴿ **أَلا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ** ﴾ ...

---

(١) الآيتان ١٣٥ و ١٣٦ من سورة آل عمران.

الفصل الحادي عشر
دعائم البناء الروحي في الإسلام

١- الإيمان بالله.

٢- الإيمان بالنفس.

٣- الإيمان بالمثل والقيم.

إن أساس الروحية في الإسلام، ليس هو إنكار الجانب المادي في الإنسان، مقاومته، أو إضعافه. فما كان الله ليخلق هذا النوع البشري مكوناً من المادة والروح، ثم يأمر بهدم أحد جانبيه، أو يرمي إلى إضعافه . . .

ولكن الروحية في الإسلام أساسها وغرضها سياسة الإنسان سياسة توجيهية من قبل الجانب الروحي فيه، ترمى إلى الموازنة بين عنصري تكوينه، فهو يعطي الروح حقها، ويعطي المادة حقها، ويعدل بينهما تعديلاً به تصلح الحياة، ويستطيع الإنسان أن يؤدي رسالته فيها.

وسياسة الإنسان، أو قيادته، من جانب الروح فيه، هي سياسة ناجحة، ودائمة، وفعالة، وأكثر من سياسته من جانب المادة.

إن الإنسان ليس حيواناً يقاد بالخطام أو اللجام، ويغري بالشراب والطعام، ولو حاول محاول أن يقيم سياسته، على هذا الأساس، فربما ينجح إلى حين، ولكنه نجاح لا يدوم، وإنما النجاح الدائم حين يتجه به إلى جانب الروح دون أن ينسى الجانب المادي.

وهذا هو السر في جميع الروحيات في الإسلام لها قوة توجيهية مؤثرة في جوانب الحياة باعثة للإنسان غير مثبطة ولا معوقة، وفي مادية الإنسان في نظر الإسلام لا تنفك عن روحيته، وروحيته لا تنفك عن ماديته، وفي أن الإسلام واقعي

في مثاليته، مثالي في واقعيته.

والجانب الروحي في الإسلام يرتكز على دعائم، لكل دعامة منها فلسفتها، وتوجيهها، وإيحاؤها، ودورها التهذيبي، وهي:

١- الإيمان بالله.

٢- الإيمان بالنفس.

٣- الإيمان بالمثل والقيم.

ومن حق هذه الدعائم أن نقف عند كل منها وقفة تحليلية:

الدعامة الأولى - الإيمان بالله:

تدل الدراسات النفسية على أن الإرادة تخضع إلى حد بعيد للقوة العقلية وتصطبغ في الناس بصبغتها، فإذا اقتنع العقل بشيء وآمن به. وجه الإرادة إليه. وبعث الرغبة فيه. فكان هذا الاقتناع هو القوة المحركة العاملة على وجود هذا الشيء أو على بقائه، ولذلك يحرص أصحاب الدعوات دائمًا على مخاطبة العقول وإقناعها بما يريدون، لأنها متى اقتنعت استجابت، ومتى استجابت كانت العزيمة. فالإرادة فالعمل.

نجد الحذاق منهم يرمون إلى التسلط بالقوة، والاعتماد عليها. فإن القوة قد تفلح في فرض شيء ما ولكنها لا تستطيع أن تكفل له بقاء مستقرًا مثمرًا مهما كان مداها وتأثيرها.

ومن ثم كانت الأديان ذات تأثير قوي لا يغلب، ذلك أنها تصل بعقائدها وما تبثه في العقول والقلوب إلى تكوين إيمان قوي تثير به العزائم إثاره قوية فعالة مكتسحة.

وعلى العكس من ذلك، إذا فرضنا أن شيئًا ما، لم يظفر بالعقيدة القلبية، والاقتناع النفسي، فإنه لا يجد الإرادة الصادقة ولا العزيمة الثابتة. فإما أن يظل في طي العدم، وإما أن يبرز عن طريق غير المؤمنين به. فيكون ضعيفًا أو ضئيلاً، ولا

يكون له الرسوخ والقرار.

وإذن فالمجتمعات التي يتقرر فيها مبدأ «الاعتقاد» هي المجتمعات التي تأخذ بأهم ركن من أركانه الجدية والعمل المثمر ذي القيمة الذاتية التي تجعله نافعًا، وتجعله ثابتًا باقيًا.

هذا شأن العقيدة أيًا كانت، لا نقصد العقيدة الدينية بل نقصد كل عقيدة يعتقدها الإنسان فتدفعه إلى العمل، وتجعله قوة فاعلة، بعد أن كان قوة قابلة، أو صالحة، أو كامنة.

إنه إذا انتقلنا من نطاق عقيدة ما، إلى نطاق عقيدة دينية. فإننا نقول: أن الإنسان محدود في عقله، وعمله، وأن عقله يكتشف كل يوم جديداً، ويكتشف في كل يوم أنه قاصر محدود ويعرف أن هناك أشياء كثيرة لا يدركها ولا يستطيع أن يحلق في جوفها أو يخوض غمارها.

والعلم أيضًا شأنه هو هذا الشأن: له في كل يوم جديد، وهو في كل يوم في تقلب وتحول، فكم من مقررات علمية آمن بها الناس، ثم عادوا فكفروا بها، وكم من مقررات كانت تظن ثابتة لا يأتيها الباطل من بين يديها ولا من خلفها، ثم نقضت من أساسها، وكان الذي نورها هو العلم. والذي نقضها هو العلم.

ولا أريد بذلك أن أهون من شأن العقل والعلم، ولكن أريد أن أكون مع العقل والعلم إلى أبعد حد، فأقول أن العلم والعقل كليهما يدلان على أن الإنسان محدود، وأنه محاط بالمجهولات الكثيرة التي لم يستطع أن يفتحها. فأول عقيدة يغرسها العقل والعلم على العالم العاقل هي أن يعتقد ذلك، فإذا اعتقد أنه محدود، وأن العالم محدود، آمن إيمانًا قويًا - لا ينافي علمه ولا عقله، بأن وراء حدوده علومًا أخرى وحقائق أخرى، ولم يستطع أن يقف مما يدعو إليه الدين إلا موقف الإنصاف.

وأول ما يدعو إليه الدين هو الإيمان بالله. الإيمان بخالق ومبدع هذا الكون العجيب الذي لا يمكن أن يوجد على سبيل المصادفة والاتفاق، لأن تفاصيله

الدقيقة، وتراكيبه التي لا تقف عند حد، تعلو على المصادفة وتجعل القول بها أمام العقول خرافة من الخرافات.

والإسلام له في تعريفك بالله، أسلوب علمي ذو توجيه ودفع.

فهو يقول لك لا تحاول أن تعرف الله من ناحية إدراك كنهه والكشف عن حقيقة ذاته، لأن ذلك (أولاً) غير ممكن ولا هو في طاقتك كإنسان، و(ثانياً) من شأنه أن يشغلك ببحوث نظرية كثيرة لا تكاد تنتهي. فيضيع وقتك وجهدك، دون ثمرة تجتنيها.

وإنما عليك أن تأخذ في شأن الله جل وعلا بهذا القانون الوقائي الذي وضعه هو: ﴿ **ليس كمثله شيء** ﴾، وأن نقول كلما حاول واصف أن يصفه بصفة بما لا يليق: ﴿ **سبحان ربك رب العزة عما يصفون** ﴾.

ثم عليك أن تعرف الله من جانب صفاته وتصرفاته، وأن تحدد صلتك به من جهة ما يجب عليك أن تفعله - أو أن تتركه في حياتك، باعتباره إلهك وخالقك ومعبودك، وباعتبارك عبده ومخلوقه وعابده.

إنك بذلك تعرف ربك حقاً، وترتب على هذا العرفان مقتضياته العملية في حياتك، وفي صلتك به وتنفي عن نفسك كل ما هو وهم أو تخيل لا أساس له من الصحة.

والأسلوب الذي وصفناه في التعريف بالله، هو أسلوب القرآن الكريم، والسنة المطهرة، فإنه لم يرد فيهما أي حديث فيه تحديد للذات الإلهية بل أن فيهما نهياً عن التفكير في الذات وأمراً بالتفكير في آثار قدرة الله وصفاته.

وقد قص الله علينا ما كان من نقاش بين موسى عليه السلام وفرعون حين أعلنه بأنه مرسل من رب العالمين.

﴿ قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ، قَالَ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ، قَالَ لِمَنْ حَوْلَهُ أَلَا تَسْتَمِعُونَ، قَالَ رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الأَوَّلِينَ، قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمُ الَّذِي أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ، قَالَ رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَمَا

﴿... بَيْنَهُمَا إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ، قَالَ لَئِنِ اتَّخَذْتَ إِلَهاً غَيْرِي لأَجْعَلَنَّكَ مِنَ الْمَسْجُونِينَ﴾[1].

لقد أراد فرعون أن يمكر بموسى وأن يوقعه في ورطة لا خلاص له منها، قال فرعون وما رب العالمين سأل عن حقيقة رب العالمين لأنه سؤال به يطلب الحقيقة، فلو حاول موسى أن يجيبه عما سأل لحاول محالاً، وآثار على نفسه نقاشًا وجدالاً. ولو سكت عن الجواب لبان عجزه، ولقال له فرعون: أنت رسول لمن لا تعرفه ولكن موسى رد على فرعون ردًا حكيمًا: ﴿قَالَ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ﴾ فكأنه قال له ليس لك أن تسأل عن ذات الله وحقيقته، فذلك فوق عقلك وفوق إدراكك وفهمك، ولكن سل عن آثاره تعلم أنه رب كل شيء في السماء والأرض وما بينهما خلقًا وتصريفًا وحكمًا وعلمًا، وهذا هو الجواب الحق لأن ذات الله تعالى يستحيل أن تعرف بالماهية. فلم يبق إلا أن يعرف الله بآثاره وفعاله، وقد تناسى فرعون ذلك لأنه لا يريد إلا المجادلة بالباطل: ﴿قَالَ لِمَنْ حَوْلَهُ أَلا تَسْتَمِعُونَ﴾ يعني فلتعجبوا له، أنا اسأله عن حقيقة رب العالمين وهو يجيبني بنسبة الآثار إليه خلقًا أو تصديقًا: وعندئذ عدل موسى إلى جواب آخر ﴿قَالَ رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الأَوَّلِينَ﴾ وفيه أيضًا لفت لعدم إمكان السؤال عن الذات مع انتقال إلى بيان أثر آخر من آثار القدرة الإلهية هو أقرب وضوحًا من الأول، لأن أمر السموات والأرض ربما أشكل على بعض العقول، أما شعور العاقل بأنه مخلوق متناسل من مخلوقين فهذا أقرب قبولاً وليس من السهل إنكاره ولكن فرعون أصر على أن الجواب غير السؤال واشتد في هذه المرة ما لم يشتد في المرة السابقة: ﴿قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمُ الَّذِي أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ﴾ أي فهو لا يفهم السؤال فضلاً عن أن يجيب. وهنا إجابة موسى بأثر آخر من آثاره القدرة الإلهية هو أشد الآثار وضوحًا وجلاء: ﴿قَالَ رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ﴾ فالمشرق يشير إلى طلوع الشمس وظهور النهار، والمغرب يشير إلى غروبها ومجيء الليل وهذان أمران دائمان مستمران لاشك أنهما من تدبير وقدرة مدبر قادر.

---

(1) الآيات ٢٢ – ٢٩ من سورة الشعراء.

وهنا عجزت حيلة فرعون في استدراج موسى، فخرج عن المناقشة إلى التهديد بالقوة: ﴿ **قَالَ لَئِنِ اتَّخَذْتَ إِلَهاً غَيْرِي لأَجْعَلَنَّكَ مِنَ الْمَسْجُونِينَ** ﴾.

ي هذا كله يظهر لنا مبلغ إصرار فرعون، وهو المتكلم بلسان أهل الباطل والإضلال، على اقتحام ما لا يقتحم، ومحاولة البحث عما لا سبيل إلى معرفته. ليتخذ ذلك سبيلاً إلى الفتنة والتشكيك وإلقاء الريب في النفوس المستعدة لذلك ويظهر لنا إصرار موسى وهو المتكلم بلسان أهل الحق والهداية على صرف الحديث عن ذلك المقتحم الصعب والاكتفاء بمعرفة الله عن طريق آثاره وآياته، وهذه ولا شك سبيل المؤمنين . . .

والخلاصة أن موقف الإسلام في التعريف بالله، يعتمد على التيسير ونفي التعقيد، والبعد عن الفلسفات، واحترام العقل الإنساني والسمو به عن أن يتورط فيما لا نفهم. وتوفير جهده ووقته لما يصلح عليه أمره، وهو التفكير في آثار القدرة والاقتناع بها عملاً.

وإذن نرى أن هذا الأمر الروحي قد وجه الإنسان من أقرب الطرق توجيهًا علميًا. ولم تكن الغاية منه مجرد تقرير نظرية ليس لها أثر إيجابي.

وحين يتعرف الإنسان إلى الله عن طريق صفاته، سيجد أن القرآن يصفه بمجموعة من الصفات هي المعبر عنها بالأسماء الحسنى، ﴿ **وَلِلَّهِ الأَسْمَاء الْحُسْنَى فَادْعُوهُ بِهَا** ﴾ ويقول النبي ﷺ : «إن لله تسعة وتسعين أسمًا – مائة إلا واحدًا – ومن أحصاها دخل الجنة».

ختام سورة الحشر: ﴿ **هُوَ اللَّهُ الَّذِي لا إِلَهَ إِلا هُوَ الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ** ﴾(١).

ومن هذه الأسماء: ﴿ **السَّلامُ الْمُؤْمِنُ الْمُهَيْمِنُ الْعَزِيزُ الْجَبَّارُ الْمُتَكَبِّرُ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ، هُوَ اللَّهُ الْخَالِقُ الْبَارِئُ الْمُصَوِّرُ** ﴾(٢).

ومن تتبع القرآن الكريم استطاع أن يأخذ منه كثيراً من الأسماء الحسنى مثل

---

(١) الآية ٢٣ من سورة الحشر.

(٢) الآية ٢٣ و ٢٤ من سورة الحشر.

الرحمن، الرحيم، القدير، العليم، الحكيم، العظيم، والحليم، فالودود، الحميد، المجيد، الوهاب، الباسط، القابض، الرقيب، الحسيب. وغير ذلك.

وأوضح أن قوله ﷺ، من أحصاها دخل الجنة: «ليس معناه، من عدها، أو حفظها، أو من تلاها، ولكن معناه: من وعاها وعي المؤمن بها المصدق بثبوت معانيها لله تعالى على وجه الكمال. وهذا يقضي درسها والتأمل فيها، وتتبع مظاهر كل صفة منها في هذا الكون، والتخلق بأخلاق الله فيها، ولاشك أن من عنى بذلك، وفق إليه يصل به إلى مرتبة من الإيمان ومنزلة من اليقين تدفعه إلى سلوك الصراط المستقيم، الذي يفضي به إلى الجنة، كما يقول رسول الله ﷺ.

وهكذا نجد المؤمن البصير بربه يتعلق بأسمائه، ويتعشقها، ويرى فيها سلواه وهداه، ويستمد من التأمل فيها قوة في حياته. تيسر له الصعاب، وتهون عليه الشدائد، وتدفعه إلى القيام بما أقامه الله فيه دون تبرم أو تسخط أو ضعف.

ويلاحظ أن هذه الصفات، أو الأسماء الحسنى، مرتبط بعضها ببعض في مهمة التعريف بالله، فلا ينبغي أن ينظر إلى كل منها منقطعًا عما عداه. بل يجب اعتبارها خطوطًا ونقطًا متكاملة على بيان صور فلا يتم إدراكها إلا إذا تضامنت وتعاونت. والله أعلى وأجل من أن يكون متصوراً بصورة المخلوقين، ولكنا نقول ذلك تقريبًا للمعنى وبيانًا للمراد.

وقد يدل على ذلك مجيء الأسماء الحسنى في القرآن الكريم متابعة دون حرف عطف غالبًا ﴿ **وَهُوَ الْغَفُورُ الْوَدُودُ، ذُو الْعَرْشِ الْمَجِيدُ، الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ السَّلامُ الْمُؤْمِنُ الْمُهَيْمِنُ الْعَزِيزُ الْجَبَّارُ الْمُتَكَبِّرُ** ... ﴾ الخ.

فكان كل اسم هو قيد فيما قبله، مقيد بما بعده، وكأنها كلها صفة واحدة مندمجة من صفات.

وحين يتعرف الإنسان إلى الله عن طريق تعرفه من الكون، يجد أنه هو الخالق، الرازق، المنعم، المحيي، المميت، المدبر. ويجد القرآن الكريم يتحدث كثيراً عن مظاهر تصرفه وقدرته، وحكمته ومشيئته، فيقول:

﴿ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ بِالْحَقِّ تَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ، خَلَقَ الإِنسَانَ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ، وَالأَنْعَامَ خَلَقَهَا لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَافِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ، وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ، وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَى بَلَدٍ لَّمْ تَكُونُوا بَالِغِيهِ إِلاَّ بِشِقِّ الأَنفُسِ إِنَّ رَبَّكُمْ لَرَؤُوفٌ رَّحِيمٌ، وَالْخَيْلَ وَالْبِغَالَ وَالْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً وَيَخْلُقُ مَا لاَ تَعْلَمُونَ، وَعَلَى اللّهِ قَصْدُ السَّبِيلِ وَمِنْهَا جَآئِرٌ وَلَوْ شَاء لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ، هُوَ الَّذِي أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لَّكُم مِّنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ، يُنبِتُ لَكُم بِهِ الزَّرْعَ وَالزَّيْتُونَ وَالنَّخِيلَ وَالأَعْنَابَ وَمِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ، وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالْنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالْنُّجُومُ مُسَخَّرَاتٌ بِأَمْرِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾(١).

﴿ وَإِنَّ لَكُمْ فِي الأَنْعَامِ لَعِبْرَةً نُّسْقِيكُم مِّمَّا فِي بُطُونِهِ مِن بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَّبَناً خَالِصاً سَآئِغاً لِلشَّارِبِينَ، وَمِن ثَمَرَاتِ النَّخِيلِ وَالأَعْنَابِ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَراً وَرِزْقاً حَسَناً إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ، وَأَوْحَى رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنِ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتاً وَمِنَ الشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ، ثُمَّ كُلِي مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ فَاسْلُكِي سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلاً يَخْرُجُ مِن بُطُونِهَا شَرَابٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ فِيهِ شِفَاء لِلنَّاسِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾(٢).

﴿ قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَن تَشَاء وَتَنزِعُ الْمُلْكَ مِمَّن تَشَاء وَتُعِزُّ مَن تَشَاء وَتُذِلُّ مَن تَشَاء بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَىَ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾(٣).

﴿ وَاللّهُ جَعَلَ لَكُم مِّمَّا خَلَقَ ظِلاَلاً وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ الْجِبَالِ أَكْنَاناً وَجَعَلَ لَكُمْ سَرَابِيلَ تَقِيكُمُ الْحَرَّ وَسَرَابِيلَ تَقِيكُم بَأْسَكُمْ كَذَلِكَ يُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْلِمُونَ ﴾(٤).

---

(١) الآيات ٣ – ١٢ من سورة النحل.

(٢) الآيات ٦٦ – ٦٩ من سورة النحل.

(٣) الآية ٢٦ من سورة آل عمران.

(٤) الآية ٨١ من سورة النحل.

﴿ أَفَلَمْ يَنظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا وَزَيَّنَّاهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ، وَالأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ، تَبْصِرَةً وَذِكْرَى لِكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ، وَنَزَّلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً مُّبَارَكاً فَأَنبَتْنَا بِهِ جَنَّاتٍ وَحَبَّ الْحَصِيدِ، وَالنَّخْلَ بَاسِقَاتٍ لَّهَا طَلْعٌ نَّضِيدٌ، رِزْقاً لِّلْعِبَادِ وَأَحْيَيْنَا بِهِ بَلْدَةً مَّيْتاً كَذَلِكَ الْخُرُوجُ ﴾[1].

وبذلك يؤمن الإنسان بربه عن طريق مشاهداته لتصرفاته، وبدافع آياته، واطراد قوانينه من الكون، ولهذا يتبع القرآن عادة كل مجموعة من هذه المظاهر والتصرفات بالإشارة إلى خالقها ومصرفها، وإنه هو الذي يستحق أن يعبد ويوحد: ﴿ ذَلِكُمُ اللّهُ رَبُّكُمْ لا إِلَـهَ إِلاَّ هُوَ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ فَاعْبُدُوهُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ ﴾[2].

وحين ينظر الإنسان إلى تحديد العلاقة بينه وبين ربه، يجد أنه لا يكلفه إلا بما فيه مصلحته، وبما يكفل سعادته في الدنيا والآخرة، وأنه يشرع تكاليفه في دائرة طاقته، والرحمة به ورعايته مقتضيات تشريفه، وبذلك يحبه ويحترم تكاليفه التي لا تخالف منطقه البشري، ويجتهد في تنفيذها راضياً.

وبين هذا كله نجد أن الإيمان بالله، وهو الدعامة الأولى فيما تستقيم به حياة الإنسان، ليس مجرد نظرة قلبية عرفانية لا آثار لها من الجوانب المادية الواقعية، بل هو عقيدة توجيهية إيجابية فعالة.

الدعامة الثانية: الإيمان بالنفس:

من الدعائم الأساسية التي يقيم عليها الإسلام بناءه الروحي ويعمل على تركيزها في الفرد والجماعة الإيمان بالنفس.

فإن فرداً من الأفراد مؤمناً بنفسه، شاعراً بقوة شخصيته، وبأنه موجود له كيان مستقل، ورسالة في الحياة، أجدى على المجتمع من ألف شخص لا يعرفون

(١) الآيات ٦ – ١١ من سورة ق.

(٢) آية ١٠٢ من سورة الأنعام.

لأنفسهم قيمة، ولا يؤمنون بأنهم مخلوقون لغاية، ولا بأن وجودهم في الحياة ليس مجرد مرور أو عبور.

وما يقال عن الفرد يقال عن الأمة وعن المجتمع، فالأمة التي تفقد الثقة بنفسها، وتنظر دائمًا إلى غيرها نظرة التقليدية والتبعية، وتحرص على أن تتمثل وتتشبه بسواها وتجتلب مثلها ومقاييسها تكون أمة حية، ولا يمكن أن يكون لها أثر في قيادة أو توجيه من آفاق غير آفاقها، لا يمكن أن يكون لها إصلاح.

لذلك يحرص الإسلام على أن يكون الأفراد في الأمة أقوياء بما يرسمه لهم من مناهج في الخلق والسلوك ويحرص في الوقت نفسه على أن يشعروا بقوة نفوسهم، ويثقوا بأنهم مخلوقون لغايات سامية، لا لمجرد العيش والمتاع وتمضية العمر يومًا بعد يوم، وعامًا بعد عام، بدون أهداف تقصد.

كما يحرص على أن تكون الأمة مؤمنة بنفسها، واثقة بأن لها أهدافًا وأنها ليست تكرارًا لغيرها.

إن الإسلام يقول للمؤمنين في كتاب الله الكريم: ﴿**كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ**﴾[1].

ويقول لهم: ﴿**وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ**﴾[2].

ويقول لهم: ﴿**وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطاً لِّتَكُونُواْ شُهَدَاء عَلَى النَّاسِ**﴾[3]، وبهذا كله يغرس في نفوسهم أنهم أمة أخرجت أي أبرزت من الله عن قصد وتدبير وإحكام وتهيئة. وأنهم يفوقون في هذا الإبراز وفي هذه التهيئة كل أمة أخرجت وإن ذلك يرجع إلى كونهم أمة واعية يسودها رأي عام قوي مهيب لا يروج فيه إلا «المعروف» وهو ما تعرفه العقول السليمة، والفطر المستقيمة، ولا

---

(١) الآية ١١٠ من سورة آل عمران.

(٢) الآية ١٠٤ من سورة آل عمران.

(٣) الآية ١٤٣ من سورة البقرة.

يزدري فيه إلا «المنكر» الذي من شأنه أن يفسد المجتمعات ويقوض بناءها.

وبهذا أيضًا يغرس في نفوسهم أنهم أمة داعية للخير، وليسوا مجرد أمة مدعوة، أي أنهم أصحاب قيادة وأهل فكرة ومبادئ ينادون بها، ولا ينطوون على أنفسهم مكتفين باعتناقها.

وبهذا أيضًا يشعرهم بأنهم هم الأمة الوسط، أي الخيار المفضل وأنهم هم الشهداء على الناس أي مثلهم هي المثل التي يجب أن تعدل بها كل المقاييس في العالم فبدل أن يكونوا أمة تابعة، تتلق ما يورد إليها أو تعتنق كل ما يجتلب لها، يكونون أمة تقلد هي، تؤخذ منها الأوضاع السليمة، والأفكار الصحيحة والمبادئ الحقة.

ولاشك أن هذا كله تركيز لثقة الأمة بنفسها وتوطيد لوجودها الحي المثمر النافع، مع بيان أن هذه الأفضلية وهذا المركز القيادي إنما يرجع إلى المبادئ والخصائص الخلقية والنفسية، من كونهم مؤمنين بالله، آمرين بالمعروف، ناهين عن المنكر، داعين إلى الخير، شهداء على الناس أي مثلاً لهم وقدوة في مختلف شئونهم.

والإسلام في سبيل تدعيم الإيمان بالنفس في قلوب المؤمنين يطلب إليهم ألا يستسلموا لعوامل الوهن والضعف النفسي، فيقول لهم: ﴿ **وَلاَ تَهِنُوا وَلاَ تَحْزَنُوا وَأَنتُمُ الأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ، إِن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُ** ﴾[1]، ﴿ **فَلا تَهِنُوا وَتَدْعُوا إِلَى السَّلْمِ وَأَنتُمُ الأَعْلَوْنَ وَاللَّهُ مَعَكُمْ وَلَن يَتِرَكُمْ أَعْمَالَكُمْ** ﴾[2].

وبهذا كله يؤكد لهم أنهم قوة، وأن قوة أعدائهم لا يمكن أن تتحدى قوتهم، لأنهم أهل الإيمان، والإيمان ثبات وصبر وتضحية، وأعداؤهم أهل الكفر، والكفر تزلزل وهلع وشح في النفوس.

---

(١) الآيات ١٣٩ – ١٤٠ من سورة آل عمران.

(٢) الآية ٣٥ من سورة محمد.

والإسلام يعلم المؤمنين عدم الركون إلى العجز والكسل كما يعلمهم عدم الاستسلام إلى الهم والحزن.

وما أبدع ما يوصي به الدعاء الذي كان يدعو به رسول الله ﷺ إذ يقول: «اللهم إني أعوذ بك من الهم والحزن، وأعوذ بك من العجز والكسل، وأعوذ بك من الجبن والبخل، وأعوذ بك من غلبة الدين وقهر الرجال».

ولو أننا تأملنا هذا الدعاء لوجدنا فيه لونًا من ألوان التربية والتقوية والإيحاء للمؤمنين بأن يعرفوا قيمة أنفسهم وغاية حياتهم.

إنه يستعيذ بالله من ثمانية أشياء كل منها يهدم قوة الإنسان ويبطل ثمرته، ويؤدي به إلى الانهيار وخسران النفس، وقد جاء بهذه الثمانية مقسمًا إياها أربعة أقسام، كل قسم قد أنضم فيه مثيل إلى مثيله.

فالهم والحزن إخوان يتشابهان لأن الهم هو ورود الألم على النفس من جانب شيء يتوقع حصوله والحزن هو ورود الألم من جانب شيء قد وقع فعلاً، والإنسان بين شيء قد حدث له فأحزنه، وشيء يخشى أن يحدث له فهو في هم منه وكرب، فإذا استسلم لهذا أو ذاك انتهى أمره إلى الضعف والتزلزل والانهيار، ففقد نفسه، وخسر نشاطه وسعيه وقوة قلبه، فالنبي ﷺ يستعيذ بالله منهما، ويوصي إلينا بهذه الاستفادة أنهما أمران مكروهان، لا ينبغي للمؤمن أن يقع في براثنهما، لكي تبقى له قوته وفاعليته وإقدامه وثبات سعيه.

والعجز والكسل اثنان متشابهان أيضًا، لأن عدم الإنتاج يرجع إلى واحد منهما، فأما أن يكون المرء عاجزًا فهو لا يستطيع أن يثمر، وإما أن يكون قادراً ولكنه كسلان لا يرحب بالعمل، ولا ينبعث إليه، وكلاهما ضعف في الإنسان وتعطيل لثمرته وإلغاء لوجوده وإن عاش آكلاً شاربًا. فالنبي ﷺ يستعيذ بربه منهما، ويوصي إلينا بذلك أنهما أمران يجدر بالمؤمن أن يعمل على وقاية نفسه منهما، حتى يكون لحياته قيمة.

والجبن والبخل كذلك: أحدهما ركون إلى عدم التضحية بالنفس في سبيل

معالي الأمور، والآخر ركون إلى عدم التضحية بالمال حين ينبغي أن يضحى به، وكلاهما بمثابة بطلان الوجود، فإنما يراد المرء ليجود بنفسه جوداً كليًا حين يجاهد ويقاتل أو جوداً جزئيًا حين يبذل في سبيل معاونة الآخرين بالسعي لهم، والمساعدة لمن يحتاج إلى مساعدته منهم، أو يراد للجود بالمال في مواضع الجود به، فمن انكمش عن هذا أو ذاك، فقد ألغى بنفسه وجود نفسه، فإذا استعاذ رسول الله ﷺ منهما، فلأنهما عاملان من عوامل هدم الشخصية.

ومثل ذلك يقال في الاستعاذة من غلبة الدين، التي هي ذل للنفس من قبل تصرفات النفس ومن قهر الرجال الذي هو ذل للنفس من قبل تصرفات الآخرين، وكل منهما إذلال للنفس وهدم لكيانها، فاستعاذة النبي ﷺ منهما إيحاء بأن يحتفظ الإنسان لنفسه بما من شأنه أن يصون عليه عزته، باستقلاله المالي دون ارتطام في دين يفقده إياه، وبسلوكه الشخصي الذي يجعله أبعد من أن يقع تحت سلطان الذل من قاهر يقهره.

وهكذا نرى كل فقرة من فقرات هذا الدعاء النبوي توجيهًا إلى الاحتفاظ بقوة النفس، والبعد عن كل ما يهدم كيانها، أو يعطل رسالتها أو يضعف ثمرتها.

ولقد انتفع المسلمون بهذا المبدأ: مبدأ الإيمان بالنفس فكان لهم دولة وصولة ودعوة وتوصية وقيادة في كل مجال: في العلم والبحث، في النظر والتفكير في الإنشاء والاختراع، في السياسة والحكم، في فقه الحياة ووضع الحلول السليمة لمختلف المشكلات في معالجة النفوس وسياستها الروحية، في إقامة موازين العدل وفي وضع قواعد التعامل الدولي بين الأمم بعضها وبعض.

وهكذا أثمر الإيمان بالنفس مدنية وحضارة ازدهر بها العالم ازدهاراً، بل لم يعرف العالم ازدهاراً عمليًا حقيقيًا إلا في ظلها، حتى العالم الحاضر الذي لا تسيطر عليه دولة الإسلام، تسيطر عليه أمهات مبادئ الإسلام، وإن زعموها من صنعهم ومن ثمرات تفكيرهم ومدنيتهم.

ثم دار الزمان دورته حين فقد المسلمون إيمانهم بأنفسهم: دار عليهم فأصبحوا

تابعين بعد أن كانوا متبوعين، وموجَّهين بعد أن كانوا موجهين، وصارت المقاييس والمثل، مقاييس غيرهم ومثل غيرهم.

وإذا كان التاريخ قد مر بالمسلمين حلواً تارة، ومراً تارة أخرى، فاننا الآن في دورة جديدة وثقنا فيها بأنفسنا، وأدركنا قيمتها، وعرفنا أننا أمة حية يجب أن يكون لها قيادة وتوجيه وأن تعود كما كانت أمة دعوة ورسالة، فلذلك التفت العالم إلينا كرة أخرى، وأصبح يلقي بآذانه لكل ما نقول، ويدرس ويحلل ما يصدر عنا من بيانات أو قرارات.

ولقد أصبحت عدوة العرب إسرائيل تدعو بالويل والثبور، وتتوقع الشر بل الفناء والزوال منذ عرفت أننا اكتشفنا أنفسنا وعرفنا مصادر قوتنا، وعناصر شخصيتنا، بعد أن كانت تضربنا الضربة بعد الضربة، فلا يكون منا إلا الصراخ والعويل والشكوى والأنين.

فواجبنا الآن أن نحرص على إيماننا بأنفسنا وأن نعلم علم اليقين أن أعدائنا ليس لهم مثل قوتنا، وإنهم لا يمكن أن يعيشوا بيننا إذا حزمنا أمرنا، واحترمنا وجودنا، وحرصنا على توطيد كياننا. وإن الذين يخوفوننا بهؤلاء الأعداء بأنهم سيساندونهم لا يمكن أن يفتوا في عضدنا، ولا أن يزلزلونا عن إيماننا بأنفسنا فقد استجبنا لله، واتبعنا أمره وعرفنا سنته.

﴿الَّذِينَ اسْتَجَابُواْ لِلّهِ وَالرَّسُولِ مِن بَعْدِ مَا أَصَابَهُمُ الْقَرْحُ لِلَّذِينَ أَحْسَنُواْ مِنْهُمْ وَاتَّقَواْ أَجْرٌ عَظِيمٌ، الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُواْ لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَاناً وَقَالُواْ حَسْبُنَا اللّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ، فَانقَلَبُواْ بِنِعْمَةٍ مِّنَ اللّهِ وَفَضْلٍ لَّمْ يَمْسَسْهُمْ سُوءٌ وَاتَّبَعُواْ رِضْوَانَ اللّهِ وَاللّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ، إِنَّمَا ذَلِكُمُ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءهُ فَلاَ تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾(١).

الدعامة الثالثة: الإيمان بالمثل والقيم:

إن بعض الناس يقولون: مالنا وللفضيلة ونحن نرى الذين يتمسكون بها يعانون

(١) الآيات ١٧٢ - ١٧٥ من سورة آل عمران.

آلامًا وأثقالاً في الحياة لا حد لها، وربما تأخر ذوو الأخلاق، وتقدم ذوو النفاق.

وبعض الناس يقولون: من الذي وضع مقاييس الفضائل، أهم أهل الجيل الأول؟ وكيف ساغ لهم أن يحكموا على كل الأجيال الآتية من بعدهم، بل كيف ساغ لجميع الأجيال من بعدهم أن تتقيد بما رأوا، والزمان يختلف، والأحوال تتغير؟

وبعض الناس يقولون: لماذا لا نتمتع بوجودنا، ونطلق لأنفسنا الحرية الكاملة في هذا التمتع؟ أليس الأولى بنا أن نعطي أنفسنا حقها في أن تنطلق انطلاقًا لا يعوقه عائق، فمن أراد أن يأكل فليأكل، ومن أراد أن يسكر أيضًا فليسكر، ومن أراد أن يتمتع بالأنثى فليتمتع ... وهكذا.

وهذه هي ألوان من الانحلال والانحراف من شأنها أن تشكك الناس في الفضيلة والمثل والقيم، والإسلام يحارب هذه النزعات الانحلالية، ويسمي الاحتفاظ بالمثل والفضائل بعبارة جميلة جامعة هي: التصديق بالحسنى كما يسمى ما يفعله المتحللون «التكذيب بالحسنى» يقول الله عز وجل: ﴿ **فَأَمَّا مَن أَعْطَى وَاتَّقَى، وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى، فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَى** ﴾[1].

فالتصديق بالحسنى أساسه أن يكون الإنسان مؤمنًا بالفضيلة، وبالمثل، وبالقيم، وبأن هناك قواعد للسلوك يجب أن تراعى وأن يؤخذ بها.

أما التكذيب بالحسنى فهو خلق المنحرفين المتحللين الزاعمين بأن كل شيء جائز، وكل شيء ممكن، وان الفضائل لا تختلف عن الرذائل إلا بأن المجتمع أنكر هذه ورضي عن تلك، ولا حقيقة في نظر هؤلاء لمعروف ولا لمنكر، ولا مقياس لخلق رفيع، وخلق وضيع.

فإذا ساد التصديق بالحسنى وبالمثل وبالقيم مجتمعًا، فإن أفراده يسعدون، وأن بيئته تكون بيئة راشدة ناجحة موصلة إلى النجاح وإلى اليسرى في الحياة.

فإذا ساد التصديق بالحسنى وبالمثل وبالقيم، فإن الحياة تكون كريهة شاقة.

---

(١) الآيات ٥ – ٧ من سورة الليل.

ولنتصور مجتمعًا لا يفرق بين الوفاء والغدر، ولا بين الصدق والكذب، ولا بين الشرف والسرف ولا بين الحفاظ والتحلل، ولا بين صون الأعراض وبذلها ... إلى غير ذلك فمن ذا الذي يرضى أن يعيش في هذا المجتمع، ومن ذا الذي يأمن على نفسه أو على حاله أو على عرضه فيه؟

ولقد يذكر التكذيب بالحسنى أي عدم الاعتراف بالمثل والفضائل والقيم، بصورة أخرى في القرآن الكريم، فالله تعالى يقول: ﴿ **وَلِلَّهِ الأَسْمَاءُ الْحُسْنَى فَادْعُوهُ بِهَا وَذَرُواْ الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَآئِهِ** ﴾[1]، فالإلحاد في أسماء الله هو إنكار ما تدل عليه من فضائل ومثل وقيم: فالله هو الرحيم، وإذن فالرحمن صنعة مثالية فمن أنكرها فقد ألحد في اسم من أسماء الله جل شأنه، والله هو الكريم فمن أنكر الكريم وسخر من الكرماء فقد ألحد في اسم من أسماء الله، والله هو المؤمن فمن سخر من أهل الإيمان، أو من الإيمان نفسه، فقد ألحد في اسم من أسماء الله... وهكذا.

وأصل الإلحاد أن تميل إلى جانب غير الوسط، وهو مأخوذ من اللحد الذي تشق الأرض فيتخذ في جانب الشق لا في وسطه وسوائه، فكل ميل وخروج من حد الوسطية والاعتدال يعد إلحادًا، فمن الناس من يلحدون في الفضائل وبينهم من يلحدون في اللغة فيريدون أن ينطلقوا من قيودها وقواعدها ومن الناس من يلحدون في الشعر فيريدون أن يخرجوا من قيوده وأوزانه .....

وهكذا في كل ناحية الحاد وكفر بالقيم والمثل فلنحذر هؤلاء ولنعتصم بما رسمه الله لنا كي نصون مجتمعنا، والله ولي التوفيق.

---

(١) الآية ١٨٠ من سورة الأعراف.

الفصل الثاني عشر

الله والحب[١]

لقد أنبأنا القرآن الكريم أن لله تعالى عباداً يحبهم ويحبونه، وهذه منزلة لا يصل إليها إلا المؤمن الخالص الإيمان، الذي يعتقد أن للعالمين ربًا واحداً، له الخلق والأمر لا شريك له في ملكه ولا رافع ولا خافض سواه، وهو القاهر فوق عباده وهو الحكيم الخبير.

أن المؤمن الصادق المخلص يكون متوحد القصد، متجهًا في كل ما يصدر عنه اتجاهًا واحداً لا يميل عنه يمنة ولا يسرة، ذلك بأنه يعرف الحقيقة فيذوق لذة عرفانها، ولا يعرف لنفسه إلا محبوبًا واحداً يؤثره على كل ما سواه، ولا يرى لنفسه فضلاً في ذلك، لأنه يرضي معنى في قلبه، يستريح إليه وتطمئن به روحه.

لقد كان رسول الله ﷺ وهو أعرف الناس بربه وأحبهم إليه وأشدهم حبًا له يتطلب قرة العين وراحة النفس في الصلاة، لأنها هي المظهر الأعظم لتوحيد الله تعالى وتكبيره وبها يتمكن الحبيب من مفاجاة حبيبه، ولاسيما في السجود، فإن أقرب ما يكون العبد إلى ربه وهو ساجد ولذلك كان صلوات الله وسلامه عليه إذا حز به أمر، أو ضاق بشيء من الأشياء صدراً أو توقع في حياته خطرًا، لجأ إلى الصلاة، فإذا دخلها وجد فيها سلواه، وراحة باله، واطمئنان قلبه، ولاشك أن أجمل ساعات الحياة وأعظمها في توفير قرة العين ورضا النفس هي أوقات الأنس بالمحبوب فما بالنا بالحبيب الأعظم، صلوات الله وسلامه عليه للمحبوب الأعظم والمنعم الأعظم، والمدبر الأعظم – جل جلاله.

والذين يحبون الله هم الذين يتجردون لتوحيده في حبهم وفيما يقتضيه هذا

---

(١) مجلة نور اليقين – تصدرها جمعية تحفيظ القرآن الكريم بقطاع غزة – السنة الثالثة – العدد الأول – رجب ١٣٨٤ – ديسمبر ١٩٦٤م.

الحب من رضا بما يفعله وحرص على ما يرضيه وانصراف عما يكرهه.

ولذلك لا يعتبر الإيمان النظري الذي لا تصحبه دلائله العملية كافيًا في النجاة والقبول، وإننا لنرى القرآن الكريم يضم إلى الإيمان دائمًا عمل الصالحات، إذ يقول في مئات الآيات: ﴿الَّذِينَ آمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ﴾، كما يقول: ﴿وَمَن يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ﴾ ذلك بأن الإيمان عرفان والعمل برهان، وهما للحب والقبول ركنان.

ويقول الله عز وجل: ﴿قُلْ إِن كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ اللّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُواْ حَتَّى يَأْتِيَ اللّهُ بِأَمْرِهِ وَاللّهُ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾[1]، وهو جل شأنه يستعرض بذلك بواعث الإيثار والتعلق والرغبة، سواء أكانت بواعث نسبية، بين الابن وأبيه، أو بين الأخ وأخيه، أو بين الزوج وزوجه أو بين أفراد العشيرة بعضهم وبعض، أم كانت بواعث مادية من أموال مكتسبة يخشى نفاذها، أو تجارة مروجة يخشى كسادها، أم كانت نعيمًا مقيمًا يتمثل في بيوت الرفاهية والعز والترف – يستعرض الله جل جلاله كل هذا باعتبار مصادر الإغراء للبشر، وما تنعقد عليه آمالهم ومطامعهم في الحياة الدنيا، ويقول لعباده: إن كان هذا كله أو كان شيء منه أحب إليكم وآثر عندكم من الله ورسوله وجهاد في سبيله، فلستم مخلصين في إيمانكم ولا صادقين في حبكم وتوحيدكم، ولكن لكم وصفًا آخر لا يمكن معه أن تهتدوا إلى طريق الهدى والرشاد ﴿فَتَرَبَّصُواْ حَتَّى يَأْتِيَ اللّهُ بِأَمْرِهِ وَاللّهُ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾.

وفي مقابل ذلك يقول جل جلاله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللّهِ وَلاَ يَخَافُونَ لَوْمَةَ لآئِمٍ ذَلِكَ فَضْلُ اللّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ وَاللّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾[2].

(١) الآية ٢٤ من سورة التوبة.

(٢) الآية ٥٤ من سورة المائدة.

فقد وصف الله الذين يحبهم ويحبونه في هذه الآية الكريمة بوصفين عظيمين.

أحدهما: أنهم أذلة على المؤمنين، أعزة على الكافرين.

ومعنى ذلك أنهم متجاوبون مع أهل الإصلاح والخير والرشاد لا يلتوون عن سبيلهم أو يخضعون لمبادئهم وأسلوبهم في الحياة، غير مستكبرين ولا معاندين، وأنهم مع ذلك أعداء الداء لأهل الإفساد والشر والبغي وكل ما هو من صفات الكافرين الجاحدين، فمن أراد أن يعرف منزلته من حب الله أو بغضه، فليرجع إلى نفسه، فأن وجد فيها خضوعًا لأهل الباطل ومهادنة لأهل الفساد ومطاوعة لأهل الشر: فليعلم أنه عدو لله وأن الله له بالمرصاد ولو بلغ عنان السماء، ومن رجع إلى نفسه فوجدها مطمئنة إلى أهل الإيمان والتوحيد وأصحاب المثل الشريفة، والمبادئ السامية فليعلم أنه محب لله، وأن الله محب له وأنه تعالى كافل أمره، وناصره في ميادين جهاده، ولو كسره المبطلون.

الوصف الثاني:

أنهم يجاهدون في سبيل الله ولا يخافون لومة لائم – وليس لله سبيل تنسب إليه إلا الوقوف في صف الداعين إلى الحق، القائمين بالعدل، العاملين بالإصلاح، ومحاربة المبطلين والعتاة المفسدين والقساة المتحجرين.

فإذا صمم المرء على ذلك، واتخذه شرعة له في الحياة ومنهجًا لا يحيد عنه، ولم يخش في سبيله أحداً من الناس مهما علا شأنه: فأنه يكون قد قدم البرهان العملي، على إيمانه وتوحيده وصدق محبته للذي آمن به ووحده، وهذه هي صفة الشجاعة في الحق، والاستهانة بالصعاب في سبيل إعلاء كلمة الله ولا يصبر عليها إلا أفذاذ من الناس هم الذين لا تخلبهم الوعود ولا ترهبهم الرعود وقد بينت هذه الآية في ختامها أن هذه المنزلة إنما هي موهبة ربانية وفضل إلهي يختص الله به بعض عباده حسب ما يعلمه فيهم من استعداد وتهيء للجهاد ﴿**ذَٰلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ**﴾.

والله تعالى هو – الودود – وفي القرآن الكريم: ﴿إِنَّ رَبِّي رَحِيمٌ وَدُودٌ﴾[1]، وهو الغفور الودود – وهذا الوصف في جانب الله تعالى هو اسم من أسمائه الحسنى تسمى به ليعرف خلقه بأنه هو مصدر البر والرحمة والإنعام والتحبب الذي يدعو إلى الحب، ويوطد علائق الود، وهو في معنى قوله جل جلاله: ﴿يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ﴾ . . .

وقد أنبأنا الله تعالى بأنه سيجعل للمؤمنين يوم القيامة حظًا من هذا الاسم الكريم، فيتجلى عليهم باسم – الودود – إذ يقول جل جلاله: ﴿إِن كُلُّ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ إِلا آتِي الرَّحْمَنِ عَبْداً، لَقَدْ أَحْصَاهُمْ وَعَدَّهُمْ عَداً، وَكُلُّهُمْ آتِيه يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَرْداً، إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَنُ وُدّاً﴾[2].

وما أحوجنا والله – إلى ود الرحمن في هذا الموقف العصيب، جعلنا الله وإياكم من أهل محبته – ووداده، ورزقنا حبه وحب من أحبه، وحب يقربنا إلى حبه.

---

(١) الآية ٩٠ من سورة هود.

(٢) الآيات ٩٣ – ٩٦ من سورة مريم.

الفصل الثالث عشر

منهج الإسلام في تكوين الفرد(1)

إن أقوى المناهج لتكوين الفرد في أمة من الأمم هو المنهج الذي يجعل منه إنسانًا صالحًا في نفسه، وصالحًا بالنسبة لمجتمعه، والإسلام يكفل للفرد منهج الصلاحية في الجانبين: فأن أول ما يعنى به الإسلام في تربية الأفراد هو غرس حقيقة الإيمان في قلوبهم.

وإذا قلت الإيمان. فلست أقصد مجرد العقيدة الباطنية التي لا تنعكس آثارها على الأعمال، ولا يكون لها توجيه للجوارح، وإنما أقصد الإيمان الذي لا تفارقه آثاره الإيجابية، وتوجيهاته العملية، والذي يصوره القرآن الكريم حيث يقول: **﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَاناً وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ، الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ، أُولَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقّاً لَهُمْ دَرَجَاتٌ عِندَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾**(2).

فهذه الآيات الكريمة تصف المؤمنين باعتبارهم أفراد صالحين لتبوئ المنازل الرفيعة والمغفرة والرزق الكريم في الدنيا والآخرة، بمجموعتين من الصفات: **أحداهما**: في جانب العقيدة التي هي الأساس الأول للفضائل النفسية، والملكات الخلقية، **والأخرى**: في جانب العمل الذي هو الآثار للفضائل النفسية، والملكات الخلقية.

فالمؤمن الحق: هو الذي يمتلئ قلبه إجلالاً وهيبة، حين يذكر ربه، فلا يمكن أبداً أن يؤثر على الله شيئًا، لأن الله في نفسه، وفي الواقع الذي يؤمن به حق الإيمان، هو

(1) العدد 1019 - الخميس 4 ربيع الأول سنة 1383 / 25 يوليو سنة 1963 - السنة الحادية والعشرون.

(2) الآيات 2 - 4 من سورة الأنفال.

أكبر واجل من أن يؤثر عليه شيئًا، فإذا وقف بين الحق والباطل، لم يسعه إلا أن يكون في جانب الحق، وإذا خير بين العدل، والظلم، أو بين الحرب والسلم، لم يسعه إلا أن يكون في جانب العدل، وأن يجنح للسلم، لأنه يؤمن بأن الله تعالى هو مصدر صفات الكمال العليا المعروفة في لسان الشرع «بالأسماء الحسنى»: فهو الحق، وهو العدل، وهو السلام ... وهكذا.

فوجل القلوب عند ذكر الله هو الحاجز الذي يحجز المؤمن عن أي لون من ألوان الانحراف عن مثل الخير والصلاح والعدل والحق التي تمثلها صفات الله جل جلاله، وشعور المؤمن حين تتلى عليه آيات الله بالراحة النفسية، والاطمئنان القلبي، والتلذذ بالفضيلة، والتصديق بالمثل العليا. هو مظهر ازدياد الإيمان في قلبه، وترسخه في نفسه، فكأن شجرة الإيمان تروى بآيات الله، فتحيا وترسخ جذورها، وتسمق فروعها، وتؤتي أكلها كل حين بإذن ربها.

أما التوكل على الله الذي هو ثالث صفات هذه المجموعة، والمذكور بقوله تعالى: ﴿ **وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ** ﴾، فهو عقيدة من شأنها التثبيت والتقوية والدفع إلى الأمام، ويخطئ من يظن أن هذه العقيدة توقف المرء في حياته موقفًا سلبيًا، فإن هناك فرقًا بين التوكل والتواكل.

إن التوكل هو أن تثق بأن الله تعالى هو صاحب الأمر الذي لا يشاركه أحد سواه، وأنه لو أجتمع أهل الأرض على أن ينفعوك، لم ينفعوك إلا بشيء كتبه الله لك، ولو اجتمعوا على أن يضروك لم يضروك إلا بشيء كتبه الله عليك، وإذا كان الأمر كذلك فليس عليك إلا أن تلاحظ رضا الله، وتلتزم أمره ونهيه، وتترسم صراطه المستقيم فيما تقبل عليه أو تنصرف عنه، معتقداً أنه لا حول ولا قوة إلا به، وإنك في حماه الآمن مادمت صادقًا في الاحتماء به، واللجوء إليه – إذا كنت كذلك كنت متوكلاً على الله حق التوكل، وكان هذا التوكل قوة دافعة لك، باعثة لنشاطك وهمتك، مقوية لإرادتك وعزيمتك، منحية لجميع العقبات التي تقف في طريقك، طاردة لجميع الهواجس التي من شأنها أن تضعف العزمات، وتزلزل النوايا.

وهذا شيء مخالف كل المخالفة للتواكل الذي هو التراخي والهبوط، والاكتفاء بالأماني، والتخوف من الإقبال على الأعمال النافعة تأثرًا بالأوهام التي تصاحب من لم تطمئن قلوبهم بالإيمان، فهم في حيرة من أمرهم، لأنهم في شك من ربهم: ﴿ **أَفَمَن كَانَ عَلَى بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِ كَمَن زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ** ﴾[١]، ﴿ **ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ مَوْلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَأَنَّ الْكَافِرِينَ لا مَوْلَى لَهُمْ** ﴾[٢].

وإذن فهذه المجموعة العقيدية الثلاثية التي يريد الله من المؤمن أن يستمسك بها، إنما هي في الحقيقة جزء أساسي من المنهج الإسلامي لتكوين الفرد تكوينًا نفسيًا من شأنه أن يجعل منه شخصية ايجابية فعالة في جانب الخير والصلاح والسلوك القويم، لا شخصية منحلة متزلزلة تهولها الصعاب، وتردها الأحداث ناكصة على أعقابها، فتعيش ما عاشت منطوية منكمشة عن أي مجال من مجالات التقدم والعمل النافع.

وإذا كانت هذه المجموعة الأولى من الصفات التي جاءت بها هذه الآيات، لها ما بيناه من الآثار الطيبة في الإصلاح النفسي، والتوجيه العلمي، فإن المجموعة الأخرى تمثل حارسين أمينين لهذه النفس التي كونت على الإيمان بالله.

فالحارس الأول: هو إقامة الصلاة المذكور بقوله تعالى: ﴿ **الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلاَةَ** ﴾.

وإنما كانت الصلاة حارسًا للإيمان، لأنها هي الصلة اليومية المتكررة بين العبد وربه، وحسب المصلي الخاشع في صلاته، أنه يفتتح هذه الصلاة بالحقيقة الصادقة التي هي من أول شعائر الإسلام، وهي «الله أكبر» فهو يفتتح صلاته بها، وينتقل من ركن إلى ركن بتكرارها: فإذا ركع قال: «الله أكبر» وإذا رفع قال الله أكبر وإذا سجد قال الله أكبر وإذا قام قالها، وإذا جلس قالها، وهكذا يكررها في الصلاة الواحدة عدة مرات في عدة ركعات، ثم يكرر الصلوات في اليوم الواحد خمس

(١) الآية ١٤ من سورة محمد.

(٢) الآية ١١ من سورة محمد.

مرات، فكأن هذا الشعار الذي لا يكاد يفارق المؤمن طول يومه، هو حارس الإيمان، ومقويه، ومثبته في قلوب المؤمنين.

هذا إلى أن الصلاة لها أثرها التوجيهي إلى الأعمال الصالحة، وإيحاؤها القوي في النهي عن الفحشاء والمنكر، ولذلك يقول القرآن الكريم: ﴿**إِنَّ الإِنسَانَ خُلِقَ هَلُوعاً، إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعاً، وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعاً، إِلا الْمُصَلِّينَ، الَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلاتِهِمْ دَائِمُونَ**﴾(١)، ويقول: ﴿**إِنَّ الصَّلاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ**﴾(٢)، وقد أثبت الله تعالى «الويل» للمصلين الذين يغفلون عن مقتضيات صلاتهم من الاتجاه إلى الأعمال الصالحة فقال: ﴿**فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ، الَّذِينَ هُمْ عَن صَلاتِهِمْ سَاهُونَ، الَّذِينَ هُمْ يُرَاؤُونَ، وَيَمْنَعُونَ الْمَاعُونَ**﴾(٣)، فإن أحسن تفسيراً لهذه الآية الكريمة، هو أن المراد بقوله جل شأنه: ﴿**الَّذِينَ هُمْ عَن صَلاتِهِمْ سَاهُونَ**﴾ هم الذين يصلون الصلاة دون أن يلتفتوا إلى مقتضياتها وأنها تأمر بالخير، وتنهى عن الشر، فكأنهم إنما يأتون بمجرد حركات وأقوال لا أثر لها في نفوسهم، وهؤلاء لا تنفعهم صلاتهم، بل تكون شاهدة عليهم، وحجة حين يحاسبون، فيقال لهم مثلاً: ألم تكونوا تقفون كل يوم بين يدي الله تكبرونه وتسبحونه فكيف غفلتم عن أن معنى تكبير الله هو عدم إيثار شيء عليه، وكيف غفلتم عن الإيحاء الذي يوحى به السجود لله، وهو الخضوع لأمره، والتذلل التام له، وأن مقتضى ذلك، هو عدم المراءاة وعدم (منع الماعون) الذي هو رمز التعاون الاجتماعي بين الناس تحقيقاً لأمر الله.

ثم أننا إذا تأملنا «صلاة الجماعة» وجدناها توحي بوحدة الصف، ووحدة الهدف، ووحدة الاتجاه، ووحدة القيادة:

فوحدة الصف تتجلى في وقوف المصلين صفوفاً متراصة مستوية لا اعوجاج فيها، فكأن الله تعالى يطلب إليهم في كل صلاة أن يكونوا متوحدين متكتلين

---

(١) الآيات ١٩ – ٢٣ من سورة المعارج.

(٢) آية ٤٥ من سورة العنكبوت.

(٣) الآيات ٤ – ٧ من سورة الماعون.

يقفون في حياتهم صفًا واحداً، كما يقفون بين يدي ربهم صفًا واحداً.

ووحدة الهدف تبدو واضحة في أن المصلين جميعًا ليس لهم إلا هدف واحد، هو أن يقبل الله عبادتهم وخضوعهم وخشوعهم. ولا تجد أحداً يدخل في صلاته إلا وهو مستهدف هذا الهدف، فكأن الله تعالى يوحي إلينا بذلك أن تكون أهدافنا في حياتنا، واتجاهنا في جميع أعمالنا، ونياتنا ومقاصدنا، كلها متوحدة حول هدف واحد هو ابتغاء مرضاة الله، بأن نسير في طريق الخير والحق والعدل والصلاح.

وحدة الاتجاه تتجلى في أن جميع المصلين يقفون متجهين إلى القبلة، لا ترى أحداً منهم موليًا وجهه عنها، وهكذا يجب على المؤمنين أن يكونوا في حياتهم، كما يكونون في صلواتهم.

أما وحدة القيادة، فمظهرها الرائع في أن المصلين جميعًا يصلون خلف إمام واحد منهم، يركعون بركوعه، ويسجدون بسجوده، ويقومون بقيامه، ويجلسون بجلوسه، ويستمعون إلى قراءته، ويؤمنون على دعائه، ويسلمون بسلامه، وهذا يدل على أن الله تعالى يحب أن يكون المؤمنون على هذا الوضع في حياتهم.

....

أما الحارس الثاني، فهو الذي يدرأ الشح عن نفس المؤمن، ويبعثه إلى أن يكون منفقًا مما رزقه الله، وذلك هو قوله تعالى: ﴿ **وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ** ﴾ ولاشك أن الإنفاق والبذل تضحية، ولا تكون التضحية إلا حيث يكون الإيمان، وأن الإنسان حين يمرن على البذل والإنفاق في سبيل المجتمع يقوى إيمانه ويتحصن دون العوامل التي تضعفه.

ذلكم هو منهج الإسلام في تكوين الفرد الصالح بالنسبة لنفسه، وبالنسبة لمجتمعه ؟

الفصل الرابع عشر

الحقوق والواجبات بين الفرد والمجتمع(١)

ليس من كرامة الإنسان أن يعيش لنفسه فقط، وإذا اعتنق إنسان هذه النزعة، فإنه يكون قد وضع نفسه موضع حيوان خسيس يعيش في حجرة ولا هم له إلا أن يجمع في هذا الجحر لنفسه ما يستلبه مما حوله، دون أن يعمل شيئًا يفيد به هؤلاء الذين يستلب منهم ما يستلب، إنه بذلك ينحط عن المنزلة السامية التي خلق الإنسان لها، فإن الله تعالى لم يخلق الإنسان إلا ليكون خليفة في الأرض يثيرها ويعمرها ويستكشف أسرارها، ويتعاون مع أبناء جنسه على تأدية رسالة الخلافة فيها، فمن نكص عن هذا التعاون، وارتضى لنفسه الوضع السلبي، والموقف الشخصي، فإنه يكون خارجًا على وضعه الإنساني، متخليًا عن منزلة الكرامة والاستخلاف الإلهي.

وفي مقابل ذلك: ليس من كرامة الإنسان أيضًا أن يكون مجرد آلة في المجتمع، لا يفكر إلا له، ولا يعمل إلا لحسابه، ولا يعرف لنفسه ذاتية خاصة لها مطالب، ولها حقوق في أن تحيا حياة سعيدة، وفي أن تتمتع، وفي أن ترضي فطرتها الإنسانية.

إن هذه النظرة تجعل الإنسان جسدًا مسخرًا لأغراض غيره، وتجعله مشابهًا للحيوان الأعجم الذي يسخر في خدمة الإنسان طول يومه باذلاً جهوده المضنية دون أن يكون له حق التبرم أو الاعتراض، أو حق التمتع بثمرات جهوده، وكل ما عليه أن يسير مغمض العينين وراء مالكه، يعمل ولا يعرف لماذا يعمل، ويأكل ليعيش لصاحبه، لا ليتمتع هو، فإنما هو شيء مملوك وقوة مسخرة مذللة ليس إلا.

فإذا كانت مجموعة الإنسان مكونة من أفراد على هذا النحو، كانت مجموعة لا روح فيها، ولا كرامة لها، وليست جديرة بأن تكون مجموعة إنسانية، ولابد أن

(١) مجلة الرسالة – العدد ١٠٢١ – ربيع الأول سنة ١٣٨٣ – أغسطس ١٩٦٣م – السنة الحادية والعشرون.

ينقلب أمرها، شعرت أم لم تشعر، إلى قطيع يساق، وينتفع به الفرد الأقوى، كما هو الشأن في التسخير والاستعباد والتذليل.

....

والإسلام هو دين «الوسطية» والاعتدال، فهو لا يجنح إلى الطرف الأول فيؤيد أنانية الفرد وانكماشه وعيشه لنفسه ولا إلى الطرف الآخر فيؤيد إذلاله وتسخيره وإفناءه في مجتمعه، وإبطال شخصيته، وإلغاء كرامته.

ولذلك نراه يشرع مناهج تحقق هذه الوسطية المعتدلة الهادفة، التي تتوازن فيها الحقوق والواجبات.

فللفرد على المجتمع حقوق لابد من كفالتها، وعليه للمجتمع واجبات في مقابل ذلك لابد من أدائها.

وإذا أردنا أن نضرب لذلك مثلاً، فإننا نجد هذا المثل في الحرية، التي هي الحق الطبيعي الأول للإنسان، والتي من شأنها أن تكفل له كرامته، فالإسلام يقرر له هذا الحق ويبينه على أساس وطيد هو تقرير أن الناس جميعًا متساوون أمام الله، هو الذي خلقهم، وهو الذي أنعم عليهم، وبفضله فقط تستمر حياتهم إلى أن يؤدوا رسالتهم في هذه الدنيا ﴿ **يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُواْ رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيراً وَنِسَاءً** ﴾[1]. ﴿ **وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ** ﴾[2]. ﴿ **وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَنْ تَمُوتَ إِلاَّ بِإِذْنِ اللهِ** ﴾ ومن ثم فليس بينهم سيد ومسود ولا عبد تملك رقبته، ومالك يتحكم في رقاب مملوكيه، ولم يكن الرق البشري من شريعة الإسلام وإنما جاء الإسلام فوجده ووجد العالم كله يتعامل عليه، فرسم الخطة المحكمة لتصفيته تصفية نهائية، وأعلن أنه يكرهه أشد الكراهية، وأنه يحب الحرية ويمجدها، ويجعلها وسيلة من وسائل التقرب إلى الله فيقول كتابه الكريم عن الإنسان: ﴿ **فَلا اقْتَحَمَ الْعَقَبَةَ، وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْعَقَبَةُ، فَكُّ رَقَبَةٍ، أَوْ إِطْعَامٌ فِي يَوْمٍ ذِي مَسْغَبَةٍ، يَتِيماً ذَا مَقْرَبَةٍ، أَوْ مِسْكِيناً ذَا مَتْرَبَةٍ** ﴾[1]. وبذلك يجعل أمام الإنسان أمرين هامين لاجتياز العقبة التي تحول

(١) الآية ١ من سورة النساء.

(٢) الآية ٥٣ من سورة النحل.

بينه و بين إنسانيته وما لها من مقتضيات، كما تحول بينه وبين أداء حقوق النعم التي أنعم الله بها عليه، وهذان الأمران هما تحرير الرقاب من الرق، وتحرير الإنسان من الجوع والمسكنة وإذا تحرر الإنسان من ان يكون عبداً لأحد، أو عبداً للقمة العيش. فقد ثبتت له كرامته الإنسانية، وثبت له حق التحرك في مجال الحياة كإنسان له إرادة، وله هدف، وله كرامة، لا كحيوان مملوك لصاحبه يسخره فيما يشاء، ويطعمه أو يحرمه كما يشاء.

ويقابل هذا الحق الطبيعي للإنسان واجب على الفرد أن يرعاه لمجتمعه، وهو أن يعمل وهو متمتع بهذه الحرية في حدود ألا يحرم غيره منها، وألا يتجاوز بها حقه فيتعدى على حقوق الآخرين فيها، فأنت حر، ولكن لا يجوز أن تكون حريتك وبالاً على مجتمعك، وألا تتخذ منها وسيلة لإقلاق هذا المجتمع وألا تنحرف بها عن طريق السداد في خلقك وفي معاملتك للناس، وفي كل ما يجب عليك أن تؤديه لمجتمعك في مقابل ما منحك من الحرية والأمن ومن هنا يكون التوازن بين الحق والواجب، فما دمت تأخذ فلابد أن تعطي، وما دمت تتمتع بكفالة المجتمع لحقك في الحياة، فلا بد أن تقوم له بقسطك في العمل من أجل سعادة مجموعه، واستقرار أمنه ورفاهيته.

وليس حق الإنسان في الحرية متعلقًا بحريته في نفسه فقط، وإنما هو حق شامل لحريته في تفكيره، ولحريته في عقيدته، ولحريته في مزاولة رسوم عبادته على الوجه الذي يتفق وما يدين الله به.

فالإسلام يمدح: ﴿**الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ**﴾(١)؛ لأن هذا هو المنهاج الصحيح للتفكير العلمي وأساسه استعراض الآراء والاحتمالات، ثم الأخذ بأحسنها، وأحسنها هو ما يؤدي إليه البرهان، وتؤيده الحجة.

والإسلام يأبى الإكراه على الدين ﴿**لاَ إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ**﴾(٢)، ﴿**إِنَّمَا أَنتَ مُذَكِّرٌ، لَسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ**﴾(٣).

والإسلام يقول: ﴿**لولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لهدمت صوامع وبيع**

(١) آية ١٨ من سورة الزمر.
(٢) البقرة: ٢٥٦.
(٣) الغاشية: ٢١.

وصلوات ومساجد يذكر فيها اسم الله كثيراً ﴾(١) فيبين بذلك أنه يحترم صاحب الصومعة وأمثالها مما اتخذ للتعبد، كما يحترم صاحب المسجد، ويحفظ لكل منهم حريته في أن يعبد الله على الوجه الذي يراه ويدين الله عليه وللإنسان حرية السعي، وحرية العمل، في النمط الذي يروقه، مادام مخلصًا يبتغي وجه ربه ﴿فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِن رِّزْقِهِ﴾(٢)، ﴿قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَى شَاكِلَتِهِ فَرَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَنْ هُوَ أَهْدَى سَبِيلاً﴾(٣).

وفي مقابل هذا الحق الذي يكفله للفرد يقول تشريعًا لما يكفل حق المجتمع: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَدْخُلُوا بُيُوتاً غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّى تَسْتَأْنِسُوا وَتُسَلِّمُوا عَلَى أَهْلِهَا﴾(٤)، ﴿أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ عَسَى أَن يَكُونُوا خَيْراً مِّنْهُمْ وَلا نِسَاءٌ مِّن نِّسَاءٍ عَسَى أَن يَكُنَّ خَيْراً مِّنْهُنَّ وَلا تَلْمِزُوا أَنفُسَكُمْ وَلا تَنَابَزُوا بِالأَلْقَابِ﴾(٥)، ويحرم إشاعة الفاحشة في الذين آمنوا ويحرم التجسس والنظر إلى مواطن السر التي يحتفظ بها الناس.

كل ذلك ليكفل كرامة المجتمع كما كفل كرامة الفرد، ومثل ذلك يقال عن سائر الحقوق التي أراد الإسلام أن يحفظ بها كرامة الإنسان، وعما يقابلها من الواجبات التي يلزم الفرد بها احتفاظًا بكرامة المجتمع.

وسبحان ربنا الذي يقول عن رسوله وكتابه الكريم:

﴿قَدْ جَاءَكُم مِّنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُّبِينٌ، يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلامِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾(٦).

* * *

(١) الحج: ٤٠ .

(٢) الآية ١٥ من سورة الملك.

(٣) الآية ٨٤ من سورة الإسراء.

(٤) الآية ٢٧ من سورة النور.

(٥) الآية ١١ من سورة الحجرات.

(٦) الآيات ١٥ و ١٦ من سورة المائدة.

الفصل الخامس عشر
المثل الكامل
شخصية الرسول الأعظم[1]

إن كل خلق من الأخلاق له تعديل، به يكون توازنه، ويتم كماله، ويكون له في صاحبه وفي الناس أثره الطيب، وإذا أردنا أن نمثل لذلك فيما يعرف الناس من أخلاق الرجال؛ فإننا نمثل له برجل يوصف بالحلم وليس له بجانب هذه الصفة من قوة الشخصية ما يجعل له هيبة تصون حلمه، وتكون بمثابة السياج الذي يحميه من جهل الجاهلين، وجرأة المتجرئين.

فالحلم خلق جميل، لو انه تمثل بشرًا لكان إنسانًا مبتسمًا، هادئ الملامح، ذا حياء واحتشام، يغض من بصره، ويخفض من صوته، ويسوده التسامح، وتسيطر عليه الرحمة.

ولكن هذا الخلق الجميل بحاجة إلى خلق آخر يكون بجانبه، هو الهيبة التي لو مثلت لصورت الوقار والجلال، وملامح الحزم والعزم، فإذا انفرد أحد هذين الخلقين في شخص لم يكن هناك تعادل وتوازن: فإما أن يكون الشخص حليمًا فقط، فلا يخشى جانبه بل يقتحم ويجترأ عليه، وإما أن يكون رهيبًا فيمقت ويجتنب ويتحاشى، وينفر منه الناس وينفضون من حوله.

وإذن فالكمال إنما هو امتزاج هذين الخلقين واجتماعهما حتى يتمم أحدهما الآخر. ويمده ويعينه ويعد له، ولذلك يقول الشاعر:

ولا خير في حلم إذا لم يكن له ... بوادر تحمي صفوه أن يكدرا

ويقول الفرزدق في وصف الإمام زين العابدين علي بن الحسين رضي الله عنهما:

(١) مجلة الأزهر – الجزء الثالث – السنة الخامسة والثلاثون.

يغضي حياء ويغضى من مهابته . فلا يكلم إلا حين يبتسم

وما يقال عن الحلم والمهابة، يقال مثله عن الصفات الأخرى، كالصبر الذي يصبح بلادة إذا لم يقترن بالمرونة وسعة الحيلة ومحاولة التخلص من آثار الكوارث، وكالشجاعة التي تصبح ثرثرة وهذراً إذا لم يصاحبها الرزانة وعمق الفهم ومعرفة المواطن التي يحسن فيها القول، والمواطن التي يجمل فيها الصمت، وهكذا . . .

ولذلك يقولون: إنه ما من فضيلة إلا وهي وسط بين رذيلتين، فالصبر هو قوة الاحتمال والاتزان أمام النوازل، وهو متوسط بين البلادة التي هي موت الإحساس، والجزع الذي هو إسراف في التأثر والانفعال، وقل مثل ذلك في الغيرة، فهي وسط بين عدم الاكتراث الذي يمكن أن نسميه «باللامبالاة» – أي يكون المرء لا يبالي بشيء، ولا يكترث بما يحدث أمامه ولو أصاب كرامته أو كرامة من له حرمة عنده – وبين الشطط في الاندفاع الذي يجعل الإنسان أحيانًا يقتل لمجرد أن المقتول لمزه أو غمزه ببعض القول فجرح كبرياءه . . . إلى غير ذلك مما نسميه بالتوسط، ويدل عليه القرآن الكريم في مثل قوله تعالى: ﴿ **وَلاَ تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَى عُنُقِكَ وَلاَ تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ** ﴾[1]، ﴿ **وَالَّذِينَ إِذَا أَنفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَاماً** ﴾[2]، ﴿ **وَالَّذِينَ إِذَا أَصَابَهُمُ الْبَغْيُ هُمْ يَنتَصِرُونَ، وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا** ﴾[3].

أي يأخذون بحقهم في الانتصار من البغي ولكنهم لا يتجاوزون الحق، بل يكتفون بمثل ما حدث لهم.

وقد كان رسول الله ﷺ هو المثل الأعلى في ناحية التعادل والتوازن بين ما حباه الله به من الصفات، و﴿ **اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ** ﴾[4]، وهو الذي يقول مخاطبًا إياه: ﴿ **وَإِنَّكَ لَعَلى خُلُقٍ عَظِيمٍ** ﴾[5]، وينبئ على وجه التحقيق بأنه جعل

---

(١) آية ٢٩ من سورة الإسراء.
(٢) آية ٦٧ من سورة الفرقان.
(٣) الآيات ٣٩ – ٤٠ من سورة الشورى.
(٤) الآية ١٢٤ من سورة الأنعام.
(٥) الآية ٤ من سورة القلم.

منه أسوة وقدوة حسنة للمؤمنين إذ يقول: ﴿**لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيراً**﴾(١٧٩).

ومن مظاهر هذا التعادل الخلقي اجتماع صفة الرحمة والرأفة فيه، مع صفة الهيبة وقوة الشخصية.

(١) فقد وصفه الله تعالى بالرحمة والرأفة في كتابه الكريم حيث يقول: ﴿**لَقَدْ جَاءكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِالْمُؤْمِنِينَ رَؤُوفٌ رَّحِيمٌ**﴾(١٨٠).

وقوله تعالى: ﴿**مِّنْ أَنفُسِكُمْ**﴾ تعبير عن معنى التجانس المفضي إلى الألفة والمحبة والارتياح، وفيه إشارة إلى أن يكون القائد من جنس الأمة، وليس غريبًا عنهم ولا مستعمرًا لهم من غير جنسهم، وقوله: ﴿**عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ**﴾ إشادة بخلق الحاكم الذي يقلقه ويزعجه ويؤلم نفسه ما عسى أن يشق على شعبه، ويوقع رعيته في العنت، فيحترز عن كل ما يؤدي إلى ذلك.

وقوله: ﴿**حَرِيصٌ عَلَيْكُم**﴾ إشادة بما يكون عليه الحاكم الأمين من حرص على منفعة شعبه، وتحقيق لكل ما يؤدي إلى رغده وهناءته.

وينبغي أن ندرك من هذا كله قوة هذا الوصف الذي وصف الله به رسوله ﷺ، حيث نراه جل جلاله يخلع عليه صفتين من صفاته، هما صفة الرحمة والرأفة اللذان يعتبران من أهم صفات الجمال القدسي، ومن أبرز الأسماء الحسنى فيقول: ﴿**بِالْمُؤْمِنِينَ رَؤُوفٌ رَّحِيمٌ**﴾.

كما ينبغي أن نقف عند آية أخرى مثل هذه الوقفة، لندرك ما فيها من تصوير رائع للرسول ﷺ، حيث يقول الله جل جلاله: ﴿**فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ لِنتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لاَنفَضُّواْ مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الأَمْرِ**﴾(٣). فقد وصفه الله تعالى بأنه يلين لهم، وان هذا اللين صادر

---

(١) الآية ٢١ من سورة الاحزاب.
(٢) الآية ١٢٨ من سورة التوبة.
(٣) الآية ١٥٩ من سورة آل عمران.

عن قسط عظيم منحه الله إياه من رحمته جل جلاله وذلك قوله: ﴿ فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ لِنتَ لَهُمْ ﴾.

ثم عاد فأكد هذا المعنى الذي جاء به على سبيل الإثبات والإيجاب بمعنى يساويه ويكمله جاء به على سبيل النفي والسلب، وهو قوله: ﴿ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ ﴾، فنفى أنه فظ - والفظ: الكريه الذي لا تستريح إليه النفوس وهو في الأصل «ماء الكرش» وكان العرب الراحلون، ربما اضطروا في الصحراء إلى نحر الجمل، ليأخذوا الماء من كرشه فيشربوه حين يبلغ بهم العطش مبلغه، ولا يجدون ماء سواه، فذلك الماء المأخوذ من كرش البعير، تسميه العرب «بالماء الفظ» لأنه مكروه شربه، لا يتناول إلا في أشد ضرورة وبذلك شبهوا به الرجل الذي لا يستساغ بين الناس إلا على نحو من الكراهية والاضطرار.

وكما نفى الله تعالى عن رسوله ﷺ أن يكون «فظًا»، نفى عنه أيضًا أن يكون «غليظ القلب»، وغلظة القلب: كناية عن عدم رقته ورحمته، وقد جاء هذا النفي للخصلتين بأسلوب «لو» المفيد للامتناع ونفهم من ربط الانفضاض من حوله، بالفظاظة وغلظة القلب. أن رحمته بهم كانت سببًا في عقد أواصر الألفة والمحبة بينهم وبينه، فكأنه قال: ﴿ فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ لِنتَ لَهُمْ ﴾ فألفوك واجتمعوا على محبتك، ﴿ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ ﴾ لكرهوك وانفضوا من حولك.

ثم نجد الآية ترسم له ﷺ منهج الحكم السليم، الذي يكون نتيجة وثمرة لخلق الحاكم المستقيم، ذي اللين والرحمة والتنزه عن الفظاظة والغلظة، فيقول: ﴿ فَاعْفُ عَنْهُمْ ﴾ أي تجاوز ما عسى أن يفرط منهم ﴿ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ ﴾ أي لا تكتف بعفوك أنت، ولكن أطلب من الله أن يعفو عنهم ويغفر لهم، ﴿ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ ﴾ ليعلموا أن روحك إنما هي روح الباحث عن المصلحة المستنير في سبيل الوصول إليها بآراء أصحابه.

وكذلك يقال في غير هذين الموضعين من مواضع الإرشاد الإلهي، للرسول الأمي ﷺ، في مثل: ﴿ فَاصْفَحِ الصَّفْحَ الْجَمِيلَ ﴾[1]، ﴿ وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ

(١) الآية ٨٥ من سورة الحجر.

للمؤمنين﴾(١)، ﴿واصبر وما صبرك إلا بالله ولا تحزن عليهم ولا تك في ضيق مما يمكرون﴾(٢)، إلى غير ذلك من الآيات المنبئة مما أختاره الله تعالى لنبيه من صفات الجمال التي تعتمد على الرحمة والرقة واللين.

ولقد كان رسول الله ﷺ مطبقًا لهذه الأوصاف تطبيقًا عمليًا، على وجه يملأ القلوب روعة وإجلالاً لخلقه العظيم: فمن شفقته ﷺ: تألفه العرب ورؤساء القبائل بالعطايا، حتى كان سبب إسلامهم وفلاحهم، قال صفوان بن أمية: «والله لقد أعطاني ما أعطاني وإنه لأبغض الخلق إلي فما زال يعطيني حتى إنه لأحب الخلق إلي» وأعطى أعرابيًا عطاء ثم قال له: أأحسنت إليك؟ قال الأعرابي: لا، ولا أجملت!، فغضب المسلمون، وقاموا إليه، فأشار إليهم أن كفوا، فزاده شيئًا، ثم قال له أأحسنت إليك؟ قال: نعم، فجزاك الله من أهل وعشيرة خيرًا، فأمره أن يخبرهم بذلك فأخبرهم ثم قال لهم ﷺ: «مثلي ومثل هذا، مثل رجل له ناقة شردت عليه، فاتبعها الناس، فلم يزيدوها إلا نفورًا، فناداهم صاحبها: خلوا بيني وبين ناقتي فإني أرفق بها منكم واعلم، فتوجه لها بين يديها، فأخذ لها من قمام الأرض فردها حتى جاءت واستناخت وشد عليها رحلها واستوى عليها وإني لو تركتكم حيث قال الرجل ما قال فقتلتموه دخل النار».

وكان رسول الله ﷺ يدخل في الصلاة يريد إطالتها فيسمع بكاء الصبي، فيخفف خشية أن يشق على أمه، وكان ربما قدم الإناء للهرة كي تشرب فما يرفعه حتى تروى وأخبار رحمته ورأفته ﷺ حتى بالحيوان الأعجم كثيرة مشهورة.

٢- وقد كان عليه الصلاة والسلام مع هذه الرحمة، وهذه الشفقة مهيبًا قوي الشخصية، وفي حديث أوصافه ﷺ «من رآه بديهة هابه، ومن خالطه فترة أحبه».

ومن الوقائع المروية في الكتب الصحيحة الدالة على قوة شخصيته، وشدة مهابته، ما رواه ابن عباس قال:

---

(١) الآية ٨٨ من سورة الحجر.

(٢) الآية ١٢٧ من سورة النحل.

«إن الملأ من قريش اجتمعوا في الحجر، فتعاقدوا باللات والعزى ومناة الثالثة الأخرى ونائلة وأساف – وهي أسماء أصنامهم: لئن رأينا محمداً، لقد قمنا إليه – أي لنقومن إليه – قيام رجل واحد، فلم نفارقه حتى نقتله، فاقبلت ابنته فاطمة رضي الله عنها تبكي، حتى دخلت على رسول الله ﷺ فقالت: هؤلاء الملأ من قريش قد تعاقدوا عليك، لو قد رأوك لقد قاموا إليك فقتلوك، فليس منهم رجل إلا قد عرف نصيبه من دمك ! فقال: يا بنية أريني وضوءاً» – أي احضري لي ماء أتوضأ به – فتوضأ، ثم دخل عليهم المسجد، فلما رأوه قالوا: ها هو ذا، وخفضوا أبصارهم، وسقطت أذقانهم في صدورهم، وعفروا أي دهشوا في مجالسهم، فلم يرفعوا إليه بصراً، ولم يقم إليه رجل !

فأقبل رسول الله ﷺ، حتى قام على رءوسهم، فأخذ قبضة من التراب، فقال: «شاهت الوجوه !» ثم حصبهم بها – أي قذفهم – .

وشبيه بهذا ما روي عن عبد الله بن عمرو ابن العاص قال: «حضرتهم يوماً – يريد قريشاً – وقد اجتمع أشرافهم في الحجر – أي حجر إسماعيل عند البيت الحرام – فذكروا رسول الله ﷺ فقالوا ما رأينا مثل ما صبرنا عليه من هذا الرجل قط: سفه أحلامنا، وشتم آباءنا، وعاب ديننا، وفرق جماعتنا، وسب آلهتنا، لقد صبرنا منه على أمر عظيم ! فبينما هم كذلك إذ طلع عليهم رسول الله ﷺ، فأقبل يمشي حتى استلم الركن، ثم مر بهم طائفاً بالبيت، فلما مر بهم غمزوه ببعض ما يقول – أي قالوا له مثلاً: أنت الذي تسب آلهتنا، أو هذا الذي يصيب ديننا، أو نحو ذلك – وكرروا ذلك ثلاث مرات، فكان يعرض عنهم، ثم قال لهم في المرة الثالثة: «تسمعون يا معشر قريش ! أما والذي نفس محمد بيده لقد جئتكم بالذبح !» فأخذت القوم كلمته حتى ما منهم رجل إلا كأنما على رأسه طائر وقع، حتى إن أشدهم فيه وصاة – أي توصية بإيذائه – قبل ذلك، ليرفؤه أي يمدحه بأحسن ما يجد من القول، حتى إنه ليقول: انصرف أبا القاسم ! انصرف راشداً، فوالله ما كنت جهولاً !! فانصرف رسول الله ﷺ، وهكذا يتناذرون دمه غائباً، حتى إذا طلع عليهم عقدتهم هيبته، وأدهشهم عظمته.

وقد رووا أن رجلاً من قبيلة تسمى «إراش» قدم مكة بإبل له، فابتاعها منه أبو جهل ثم مطله بثمنها، فلم يوفه به، فأقبل الرجل حتى وقف على ناد من قريش – ورسول الله ﷺ في ناحية المسجد جالس – فقال الرجل: يا معشر قريش، من منكم يعينني على أخذ حقي من أبي الحكم بن هشام ؟ فإني رجل غريب ابن سبيل وقد غلبني على حقي ! فقال له أهل ذلك المجلس أترى ذلك الرجل الجالس؟ يشيرون إلى رسول الله ﷺ وهم يهزءون به لما يعلمون بينه وبين أبي جهل من العداوة – ثم قالوا اذهب إليه فإنه يأخذ لك بحقك من غريمك، فأقبل الرجل حتى دنا من رسول الله ﷺ – وهو لا يعرفه – فقال: يا عبد الله، إن أبا الحكم ابن هشام قد غلبني على حق لي قبله. وأنا رجل غريب ابن سبيل، وقد سألت هؤلاء القوم عن رجل يأخذ لي حقي منه فأشاروا لي إليك فخذ لي حقي منه يرحمك الله ! فقال رسول الله ﷺ: «انطلق إليه» وقام معه، فلما رآه أهل المجلس قام معه تعجبوا، وقالوا لرجل منهم: اتبعه فانظر ماذا يصنع، وخرج رسول الله ﷺ حتى جاء بيت أبي جهل، فضرب عليه بابه فقال أبو جهل: من ؟ قال: محمد، فاخرج لي، فخرج إليه خائفًا يرتعد وما في وجهه روح باقية، قد امتقع لونه، أي تغير. فقال له رسول الله ﷺ: أعط هذا الرجل حقه ! فقال: نعم، لا تبرح حتى أعطيه الذي له ! فدخل ثم خرج بحقه فدفعه إليه، ثم انصرف رسول الله وقال للرجل: «إلحق بشأنك»، فأقبل حتى وقف على ذلك المجلس. فقال: جزاه الله خيرًا، فقد – والله – أخذ لي حقي ! وجاء الرجل الذي بعثوه معه فقالوا له: ويحك ماذا رأيت؟ قال: عجبًا من العجب ! والله ما هو إلا أن ضرب عليه بابه، فخرج إليه وما معه روحه، فقال له: أعط هذا حقه، فقال: نعم لا تبرح حتى أخرج إليه حقه، فدخل ثم خرج إليه بحقه فأعطاه إياه، ثم لم يلبث أبو جهل أن جاء، فقالوا له: ويلك: مالك ! والله ما رأينا مثل ما صنعت قط ! قال أبو جهل: ويحكم، والله ما هو إلا أن ضرب علي بابي وسمعت صوته فملئت رعبًا، ثم خرجت إليه وإن فوق رأسه لفحلاً من الإبل ما رأيت مثل هامته ولا أنيابه لفحل قط !! والله لو أبيت لأكلني !».

وهكذا ارتاع عدو الله، من هيبة رسول الله ﷺ حتى صور له الروع ما رأى !

ولقد جاء إليه رجل، فقام بين يديه فأخذته رعدة شديدة ومهابة، فقال له: هون عليك فإني لست بملك ولا جبار! إنما أنا ابن امرأة من قريش كانت تأكل القديد بمكة.

ولما رأته «قيلة بنت مخرمة» في المسجد ارتعدت من شدة الفرق وهابته هيبة شديدة.

وروى مسلم عن عبد الله بن عمرو بن العاص قال: صحبت رسول الله ﷺ ما ملأت عيني منه قط، حياء منه وتعظيمًا له، ولو قيل لي: صفه، لما قدرت! فهذا صاحب من أصحاب رسول الله ﷺ، ولولا أنه كان يؤنسهم ويباسطهم ويتألفهم ويتواضع لهم؛ لما استطاع أحد منهم أن يبتدئه بالقول، لما رزقه الله تعالى من المهابة والجلال.

....

هذه هي شخصية رسول الإسلام، صلوات الله وسلامه عليه: لين في غير ضعف، وشدة في غير عنف، ومهابة يزينها التواضع، وجلال يملأ صدور الرجال.

الفصل السادس عشر

عبدة الأهواء[1]

«يقول أهل العلم: إن من المقاصد التي جاءت لها الشرائع، إشعار الناس بأنهم عبيد لله اختياراً، كما أنهم عبيد له اضطراراً».

ومعنى هذا: أن الناس جميعًا مخلوقون لله عز وجل، وأنهم معتمدون في بقائهم مدة ما يعيشون على فضل الله ورحمته وإمداده، فإذا انقطع عنهم هذا الفضل وذلك الإمداد طرفة عين هلكوا، وأصبح علمهم وتجاربهم ومالهم من حيل أو عمل باطلاً لا يغني عنهم فتيلاً، ولا ينفعهم نقيرًا؛ وهم لذلك عبيد لله في الواقع، لا يرجع الأمر في ذلك إلى اختيار منهم، فهم مربوطون بهذا الكون لا ينفكون عنه، مأخوذون بسنته رضوا أم أبوا.

ومن جهة أخرى هم خاضعون لإرادة الله في وجودهم وهيئاتهم، ودرجات عقولهم وحظوظهم؛ فإن أحداً لم يوجد في هذه الحياة باختيار منه، ولم يختر الهيئة التي صور عليها من طول أو قصر، أو جمال أو دمامة، أو قوة أو ضعف؛ وإن أحداً لم يختر لنفسه أن يكون على درجة كذا من العقل، أو أن يكون ذا قسط معين من حظوظ الحياة، فالحياة تجري على ما أراده الله لها، والناس يجرون كما خلقهم الله، والكل خاضعون خضوعًا فعليًا اضطراريًا لما هم عليه، أو لما هم فيه، لا يحاولون ولا يستطيعون منه فكاكًا.

هذا الخضوع الواقعي الاضطراري هو عبودية الناس، بل عبودية كل شيء لله سبحانه خلقًا وتكوينًا؛ أما العبودية التي قصدت الشرائع أن يشعر بها الناس: فهي عبودية الطوع والاختيار، وذلك إنما يكون بالنزول على حكم الله. مع الثقة بأنه

---

(1) مجلة الأزهر - المجلد الحادي والعشرون - ربيع الأول ١٣٦٩هـ - ١٩٤٩م.

الخير والحق والرشاد.

....

«إن النفوس البشرية نزاعة دائمًا إلى إتباع الهوى، فقد فطرت على ما تسميه «بالأنانية» فكل امرئ يريد أن يكون هو الفائز بأكبر قسط من متاع الدنيا، وكل امرئ يريد أن يكون هو الناجي من جميع آلامها وصعابها، وهو لهذا ينظر إلى الأشياء بعين نفسه، ويزن الضار ولنافع بمقدار ما يعود عليه هو من النفع والضرر، وقلما يخرج الإنسان على هذه الطبيعة، وإن تحمل وتجمل وتهذب ولبس ثوب الإيثار، فإنه سيظل في أسر هذه الطبيعة ولو بعقله الباطن، وتصرفاته «اللاشعورية»؛ ولهذا لم يكن بد من أن يحال بين هذه الطبيعة السارية في جنس الإنسان، وإفساد هذا الكون؛ ولهذا كانت الشرائع، وكان أهم شيء فيها هو محاربة «الهوى» لأن الإنسان إذا تحرر من هواه، فقد تحرر من اخطر أنواع الشرك بالألوهية، وألقى بنفسه بين أحضان الإيمان الصحيح، والتوحيد الخالص، وكان عبدًا لله اختيارًا كما هو عبد له اضطرارًا».

وإننا لنجد في القرآن الكريم بيانًا واضحًا لهذا المعنى؛ فالله سبحانه وتعالى يصف «الهوى» بأنه إله إذ يقول: ﴿ **أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَٰهَهُ هَوَاهُ** ﴾[1]؛ وذلك تصوير بليغ لانسياق الإنسان واندفاعه وراء ميوله ورغباته؛ كما يندفع العابد في تحقيق أمر معبوده، طلبًا لرضاه، وتقربًا إليه.

وقد يتصل بهذا أيضًا قوله تعالى: ﴿ **لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا** ﴾[2]، تبين أنها تشير إلى أخطر الأهواء وشدة إفسادها للسموات والأرض إذا حكمت، فإن الله لم يذكر فساد السموات والأرض على هذا النحو إلا حين تحدث عن التعدد في الألوهية، وإتباع الحق أهواء المبطلين.

وقد حذر الله من هذا الفساد نبيًا ملكًا من أنبيائه الكرام، هو داود عليه السلام

---

(١) الآية ٢٣ من سورة الجاثية.

(٢) الآية ٢٢ من سورة الأنبياء.

إذ يقول: ﴿يَا دَاوُودُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَى فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ﴾[1]. وإذا كان مُلك الله – جل جلاله – وهو السموات والأرض ومن فيهن ومالا يعلم إلا الله معرضًا لأشد الفساد إذا اتبع الحق أهواء المبطلين؛ فأولى بذلك ملك الناس ولو كانوا ملوكًا أنبياء.

وقد صرنا إلى زمان اتّبعت فيه الأهواء، وسيطرت على الدول والأمم فيه النزعات والمذاهب البشرية، فمن نازية إلى فاشية إلى ماركسية إلى ديمقراطية تتلون بلون الإنجليز تارة، وبلون الفرنسيس تارة، وبلون الأمريكان أحيانًا، بل يكون لها معنى في الغرب، ومعنى في الشرق، ويعرفها المستعمِرون على وجه، والمستعمَرون على وجه آخر، أو على وجوه أخر، وهكذا ظلمات من الأهواء بعضها فوق بعض، والشعوب تتلظى بنيران المتخاصمين عليها، والمتعصبين لها، فلا تفيق من حرب إلا إلى حرب، ولا تعالج مشكلة إلا لتقع في مشكلات، وكلما امتد الزمان بهذه الأهواء المتضاربة، والنحل المتغالبة، افتنّ أصحابها في ابتكار وسائل الهلاك والدمار، والحرب الغازِّية تتلوها «القنبلة الذرية» ثم حروب الأمراض والأوباء تبث في الناس فتعمى بها الأبصار، وتشوى بها الجلود والأبشار، وينتقل بها سكان الأكواخ والقصور، إلى الأرماس والقبور. ذلك وما يعانيه الناس من الفاقة والضيق، والخوف والعوز، أشد عليهم وأنكى من هذا الموت المرتقب؛ فإنه ما من شعب الآن إلا وقد ضوت منه الجسوم، وخوت البطون، وشحبت الوجوه، واضطربت الأعصاب، وغامت العيون، وكأنما هي سنو يوسف غير أنها ليست سبعًا، وقد مضى منها حتى اليوم عشر، ولا يدري أحد إلا الله إلام تمتد، وهل تخف حدتها أو تشتد.

لعمري ما نكبت البشرية بذلك إلا من أتباع الأهواء، وأزورار الناس عن أن يكونو عبيداً لله اختياراً كما هم عبيد له اضطراراً.

إن أمر الناس والأديان اليوم دائر بين أمة خلعت رداءها، ونبذت أحكامها وتكاليفها، وتحللت منها علانية في غير خفاء ولا تورع، وأمة تمسكت بها رسمًا لا

---

(١) الآية ٢٦ من سورة ص.

حقيقة، واحتفظت بها كتقليد ورثته فأبقت على صورته؛ ولا تكاد تجد أمة تتمسك بدينها، وتبني جميع أمورها عليه، وتدير شئونها حسب رسومه. ومن عجب أنهم يعتبرون ذلك رقيًا في الحياة، وتخلصًا من آثار القرون الأولى، وانفلاتًا من قيود الرجعية؛ وإذا رأوا داعيًا إلى الدين، ومنذرًا ينذرهم لعلهم يرجعون، سخروا منه، ورموا بأباطيلهم في وجهه، وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعًا ﴿أَفَمَن كَانَ عَلَى بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِ كَمَن زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ﴾[1] !

لقد قلت ومازلت أقول: «إن العالم لفي حاجة إلى دعوة صادقة مخلصة ترسم له سبل الحياة السعيدة، وتضع له أسس الاستقرار والسكينة، وتجمع في تعاليمها بين المادية والروحية؛ فلا تسمح لإحداهما بأن تطغى على الأخرى، ويشعر في ظلالها كل فرد بأنه لبنة في بناء المجتمع، وتأخذ الفطرة الصافية فيها حظها الطبيعي في كل ناحية من نواحي الحياة، فلا أثرة ولا استئثار، ولا معاندة لما طبع الله عليه العالم من التفاوت في المال، والمواهب والاختصاص، ولا تحكم ولا تمرد، ولا عصبية لجنس على جنس، ولا امتياز للون على لون، ولا غمط لحق، ولا انتصار لباطل، ولا ترويج لرذيلة، ولا تنكُّر لفضيلة. ولن يجد العالم هذه الدعوة الصادقة المنقذة إلا في «الإسلام» ولو ظل قرونًا من الدهر ينظر إلى «الكتلتين»، ويرجع البصر كرتين. فليت شعري إلام يقبع المسلمون في ديارهم وأوطانهم منكمشين يطرقها عليهم الطارقون، فإما فتحوها لهم كارهين، وإما ظلوا من ورائها خائفين يترقبون !.

ألا إنهم لأرباب دعوة، وأصحاب فكرة، ودعوتهم هي النور المبين الذي به تمحى ظلمات الجهل والشرك والهوى والفساد، والعلاج الحاسم لأدواء هذا العالم التي حار فيها المتطببون؛ فليخوضوا بدعوتهم كل مخاض، وليعرضوها على العقول بيضاء نقية؛ كما جاء بها محمد ﷺ، وليلقوا بها في وجوه أهل الباطل وما اصطنعوا من دعوات الهوى والضلال، فإن الحق سيزهق الباطل، وإن عصا موسى ستلقف ما يأفكون.

---

(١) الآية ١٤ من سورة محمد.

ملحق الكتاب

الملكات النفسية في القرآن الكريم

محاضرة السيد الأستاذ

سيد محمد أبو المجد

المستشار الفني للمؤتمر الإسلامي

ألقاها

في قاعة المحاضرات الأزهرية الكبرى

في مساء الثلاثاء

٧ من ذي القعدة سنة ١٣٧٩هـ

٣ من مايو سنة ١٩٦٠م

أيها السادة الأجلاء :

سلام الله وبركاته عليكم وبعد :

فقد قال الله تعالى في كتابه الكريم : ﴿ **سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ** ﴾(١)، ولقد صدق الله عهده وأنجز وعده : فأرانا جانبًا من آياته الكبرى وآثاره العظمى في ملكوت الأرض وآفاق السموات، وأفاض علينا من أسرار قدرته ما يشده البصائر ويفتن الأبصار .

فمن نجوم وكواكب، ومن أفلاك وسدم، ومن نيازك وشهب، ومن أشعة كونية تفد إلينا من مصدر مجهول، وتهطل علينا كالسيل المنهمر صباحًا ومساءً، فلا تقيدها الحواجز، ولا تقف في طريقها السقف والجدران .

ومن أضواء تنطلق في الفضاء بسرعة تقرب من ثلاثمائة ألف كيلومتر في الثانية الواحدة، وتمعن في الانطلاق إلى أمد لا يدرك مداه إلا الله؛ ومن شموس تبلغ ملايين الملايين، ولا يعلم عددها إلا الخلاق العظيم : ﴿ **وَلَوْ أَنَّمَا فِي الأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلامٌ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِن بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَّا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللَّهِ** ﴾(٢)، ﴿ **وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلا هُوَ** ﴾(٣)، ﴿ **فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ** ﴾(٤).

أيها السادة :

هذا جانب مما أطلعنا الله عليه من آيات قدرته، ودلائل عظمته في آفاق الأرض والسموات .

أما آفاق النفس البشرية، فقد أعاننا الله فأتاح لنا كشف جانب من أسرارها

(١) الآية ٥٣ من سورة فصلت .
(٢) الآية ٢٧ من سورة لقمان .
(٣) الآية ٣١ من سورة المدثر .
(٤) الآية ١٤ من سورة المؤمنون .

ومعرفة قدر من آياتها. وإن كنا لا نزال واقفين على حافتها نترقب – مع الزمن – مكتشفًا أو عدة مكتشفين يخوضون فيها بحار الظلمات، ويجتابون فيها مجاهل القارات، فيوضحون لنا ما في عوالمها الفسيحة من بحار متلاطمة، وصحاري مترامية، وجبال شاهقة، وأنهار دافقة، وبراكين ثائرة، وعواصف هادرة، وأغوار عميقة، وآماد سحيقة، وأنهار جارية، وسماء صافية، وحقول خضراء، وجنات فيحاء.

وسنرى من عجائب النفس البشرية مالا يقل إعجازاً عن آيات العالم الكونية وحينئذ نلمس حكمة الله الذي خلق الإنسان وعلمه البيان، ومنحه خلافته وحمله أمانته، وكرمه وسواه، وفضله على كثير من خلقه تفضيلاً. وصدق الله العظيم: ﴿ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلاً ﴾[1]، ومن تكريم الله للإنسان أن سخر له كثيراً من مخلوقاته: ﴿ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ وَأَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقاً لَّكُمْ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْفُلْكَ لِتَجْرِيَ فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَسَخَّرَ لَكُمُ الأَنْهَارَ، وَسَخَّر لَكُمُ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ دَآئِبَينَ وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ، وَآتَاكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَتَ اللَّهِ لاَ تُحْصُوهَا ﴾[2].

....

وإذا كان الله تعالى قد سوى النفس البشرية؛ وألهمها فجورها وتقواها، فمن الواجب علينا أن نعرف عوالم هذه النفس وآفاقها، وسبيل الهداية فيها، ومزالق الضلال منها، لندرك طريق الصواب، ونأمن مزالق الخطأ والانحراف، وقد نطق بهذا أبو الفلسفة القديمة سقراط، فتهتف بالحكمة الخالدة: «اعرف نفسك» ومن لطف الله بعباده أنه أرسل إليهم رسلاً، وأنزل إليهم كتبًا، تنير أمامهم الظلمات، وتكشف عن أعينهم الغشاوات، وتفتح لهم أبواب الرحمات، فلا عذر لمن

(١) الآية ٧٠ من سورة الإسراء.

(٢) الآيات ٣٢ – ٣٤ من سورة إبراهيم.

يغمضون أعينهم ويصمون آذانهم، ويغلقون قلوبهم فيقطعون الحياة كالأنعام أو أضل سبيلاً؛ ويقولون: ﴿ **وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ مِمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ وَفِي آذَانِنَا وَقْرٌ وَمِن بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ** ﴾[1]، ﴿ **وَكَأَيِّن مِّن آيَةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ** ﴾[2].

أيها السادة:

إن أمامنا كتاب الله الكريم، وهو معجزته الخالدة، وآيته الكبرى، فيه ضياء للقلوب، وهدى للعقول، وشفاء للنفوس، وبشرى للمحسنين، وفيه إشارات كلية مجملة لآيات الله الكونية ... المادية منها والمعنوية، أما التفصيلات الجزئية فقد أودعها الله كتاب الكائنات، أو كتاب الحياة، فالقرآن الكريم يرشدنا إلى أن ندرس آيات الله الكونية في ملكوت السموات: ﴿ **أَفَلَمْ يَنظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا وَزَيَّنَّاهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ** ﴾[3]، كما يرشدنا إلى أن نجوس فجاج الأرض باحثين منقبين: ﴿ **أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لا تَعْمَى الأَبْصَارُ وَلَكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ** ﴾[4].

وهو مع هذا وذاك يدعونا إلى أن نتدبر العوالم الخفية في النفوس البشرية فيقول: ﴿ **وَفِي أَنفُسِكُمْ أَفَلا تُبْصِرُونَ** ﴾[5].

وإذا تدبرنا النفس البشرية، ونفذنا إلى داخلها وأمعنا في مجاهلها صادفنا الجهاز العصبي؛ وهو همزة الوصل بين العوالم المادية والعوالم المعنوية في آفاق النفس البشرية، وهو أشبه بجهاز حكومي مركز تركيزاً شديداً في مكتب رئيس يتصل مباشرة بعدد ضخم من المكاتب الفرعية التي يعمل في خدمتها ملايين الوطنيين.

---

(١) الآية ٥ من سورة فصلت.

(٢) الآية ١٠٥ من سورة يوسف.

(٣) الآية ٦ من سورة ق.

(٤) الآية ٤٦ من سورة الحج.

(٥) الآية ٢١ من سورة الذاريات.

هؤلاء الموظفون هم الخلايا العصبية التي نسميها «النيورونات».

ويوجد بالجسم ألفا مليون خلية عصبية لكل منها عمل خاص، ومن الغريب أن هذا العدد يعادل أو يقارب سكان الكرة الأرضية اليوم، وهذه الخلايا يشرف عليها وينظمها المكتب الرئيسي في دقة بالغة وفي تنسيق عجيب. ومن الغريب أن هذه الخلايا لا تتشابه، وإنما تختلف حجمًا وشكلاً ومظهرًا، بعضها يشبه العنكبوت؛ وبعضها يشبه الشجرة، وبعضها عصوي الشكل؛ وبعضها مثل كتلة من الأعشاب البحرية، وبعضها تستطيع العين رؤيته، وبعضها لا تستطيع تمييزه، وقد تمتد فروع بعضها امتداداً ضئيلاً، وقد تمتد فروع البعض الآخر ابتداء من أعلى المخ إلى نهاية الحبل الشوكي، وهي مسافة لا تقل عن ثلاثة أقدام. وهذا يذكرنا بسكان كوكبنا الأرضي، وإننا لا نكاد نجد واحداً منهم يشبه الآخر في الشكل أو اللون أو الجنس أو قسمات الوجه أو الطبائع والعادات أو أساليب التفكير، فتبارك الله العظيم **﴿قَالَ رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى﴾**[1]، **﴿الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّى، وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَى﴾**[2]؛ **﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُ تَقْدِيراً﴾**[3]، **﴿مَّا تَرَى فِي خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِن تَفَاوُتٍ فَارْجِعِ الْبَصَرَ هَلْ تَرَى مِن فُطُورٍ، ثُمَّ ارْجِعِ الْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنقَلِبْ إِلَيْكَ الْبَصَرُ خَاسِأً وَهُوَ حَسِيرٌ﴾**[4]، **﴿يَا أَيُّهَا الإِنسَانُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ، الَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّاكَ فَعَدَلَكَ، فِي أَيِّ صُورَةٍ مَّا شَاء رَكَّبَكَ﴾**[5].

أيها السادة:

إننا نعلم أن الله خلق الإنسان واعده ليكون خليفة في أرضه، وحامل أمانته بين خلقه، وأنه سخر له القوى الأرضية، والوسائل المادية، والطاقات الطبيعية ورصد له المدارك العقلية، ونفث فيه الفطرة الدينية: **﴿فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ**

---

(١) الآية ٥٠ من سورة طه.

(٢) الآيات ٢ و ٣ من سورة الأعلى.

(٣) الآية ٢ من سورة الفرقان.

(٤) الآيات ٣ و ٤ من سورة الملك.

(٥) الآيات ٦ – ٨ من سورة الإنفطار.

عَلَيْهَا ﴾(١)، ﴿ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بَنِي آدَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنفُسِهِمْ أَلَسْتَ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى شَهِدْنَا ﴾(٢).

واقتضت حكمته بعد ذلك أن يبث في كل نفس النزعات المادية، والنزعات الحسية، والشهوات الحيوانية، والغرائز البدائية، وشاءت إرادته أن تكون النفس البشرية ميدانًا للصراع بين الخير والشر، وبين الفضيلة والرذيلة، وبين الهدى والضلال: ﴿ لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَن بَيِّنَةٍ وَيَحْيَى مَنْ حَيَّ عَن بَيِّنَةٍ ﴾(٣)، ﴿ وَلِيُمَحِّصَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَمْحَقَ الْكَافِرِينَ ﴾(٤)؛ فمن أخلد إلى الأرض واتبع هواه وآثر العاجلة على الآجلة استحق العقاب الشديد، ﴿ مَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ ﴾(٥)، ومن زكى نفسه وطهر حسه، وراقب الله في السر والعلن، وآثر الآخرة على الدنيا استحق الجواب الجزيل، والأجر العظيم، ولنعم أجر العاملين. ﴿ قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّى، وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّى ﴾(٦)، وصدق الله العظيم: ﴿ وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَى بِنَا حَاسِبِينَ ﴾(٧)، ﴿ فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ، وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ ﴾(٨)، ﴿ فَأَمَّا مَن طَغَى، وَآثَرَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا، فَإِنَّ الْجَحِيمَ هِيَ الْمَأْوَى، وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَى، فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَى ﴾(٩).

ولكن حكمة الله ورحمته اقتضت، قبل أن يعرض الإنسان لهذا الاختيار

---

(١) الآية ٣٠ من سورة الروم.

(٢) الآية ١٧٢ من سورة الأعراف.

(٣) الآية ٤٢ من سورة الانفال.

(٤) الآية ١٤١ من سورة آل عمران.

(٥) الآية ٤٦ من سورة فصلت.

(٦) الآيات ١٤ و ١٥ من سورة الاعلى.

(٧) الآية ٤٧ من سورة الانبياء.

(٨) الآيات ٧ و ٨ من سورة الزلزلة.

(٩) الآيات ٣٧ - ٤١ من سورة النازعات.

العنيف أن يرسل إليه رسلاً، وينزل إليه كتباً، وأن يوضح له طريق الخير والشر وسبيل الرشاد والضلال، وقد أجمعت الكتب السماوية على أن الطريق المستقيم طريق النجاة والفلاح هو طريق الإيمان والعمل الصالح. فالإيمان وحده لا يكفي للنجاة: ﴿ **أَحَسِبَ النَّاسُ أن يُتْرَكُوا أن يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لا يُفْتَنُونَ** ﴾[1]، والعمل المجرد من الإيمان عبث وضلال: ﴿ **وَقَدِمْنَا إِلَى مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَّنْثُورًا** ﴾[2]، وهنا تكون العدالة الإلهية والرحمة الربانية قد أنصفت الإنسان من نفسه، فإنه: ﴿ **مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا وَمَا رَبُّكَ بِظَلامٍ لِّلْعَبِيدِ** ﴾[3]، ﴿ **وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّى نَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنكُمْ وَالصَّابِرِينَ وَنَبْلُوَ أَخْبَارَكُمْ** ﴾[4]، ﴿ **يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِن سُوءٍ ...** ﴾[5]، ولقد أنبأنا الله تعالى بالأدوار الطبيعية التي مر بها الإنسان وأوجزها لنا في أروع بيان حيث يقول في كتابه الكريم: ﴿ **لَقَدْ خَلَقْنَا الإِنسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ، ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ، إِلا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ، فَمَا يُكَذِّبُكَ بَعْدُ بِالدِّينِ، أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَحْكَمِ الْحَاكِمِينَ** ﴾[6].

أيها السادة:

بعد أن عرفنا هذه المراحل الثلاث أعود بكم إلى العوامل الأساسية في تكوين النفس الإنسانية، ولقد اختلف العلماء في هذه العوامل اختلافاً كبيراً.

فذهب فريق منهم إلى أن الوراثة هي العامل الأكبر في هذا التكوين من أمثال جولتون Golton وبيرسون Person ولوك Locke وهم يؤكدون في أهمية الوارثة

---

(١) الآية ٢ من سورة العنكبوت.

(٢) الآية ٢٣ من سورة الفرقان.

(٣) الآية ٤٦ من سورة فصلت.

(٤) الآية ٣١ من سورة محمد.

(٥) آية ٣٠ من سورة آل عمران.

(٦) الآيات ٤ – ٨ من سورة التين.

ويبالغون في هذا، حتى يتجاوزوا دائرة التكوين الجسمي والعقلي إلى التكوين الخلقي حيث يقول بيرسون: «إن الناس يرثون عن آبائهم القدرة والخجل والمشاعر والحالات النفسية بالطريقة التي يرثون بها الشكل واللون وطول القامة وغير ذلك» وقلل فريق من العلماء الباحثين أهمية الوراثة وجعلوا تأثير البيئة هو كل شيء في حياة الإنسان، وفي هذا يقول هنري جورج: «إن العوامل الوراثية التي يبالغ الناس الآن في أهميتها لا قيمة لأثرها إذا قورن بأثر العوامل التي تؤثر في الإنسان في هذا العالم».

الحقيقة أن كلا الطرفين مبالغ في رأيه، فإن لكل من الوراثة والبيئة أثرًا حاسمًا في تكوين النفس البشرية.

فقد أثبت علماء الحياة أن في الحيوان المنوي والبويضة خيوطًا في شكل العصي اسمها الصبغات أو الكروموسومات Chromosomes وعددها أربع وعشرون فبينهما يتم التلقيح ويمتزج الحيوان المنوي بالبويضة، وتصبح البويضة المخصبة محتوية على ثمانية وأربعين من الصبغيات كل منها يحمل عددًا من وحدات الوراثة التي يسميها العلماء الجينات Genes ثم تنقسم الخلية تمهيدًا للتكاثر والنمو فتبنى كل جزئية صبغية جزيئًا يماثلها ويتكرر الأمر ملايين المرات، ونتيجة لهذا تصبح كل خلية من الجسم نسخة من الخلية الأولى التي تحمل خصائص الأب والأم. وفي أثناء الحمل يتأثر الجنين بالبيئة الأولى التي يمكث فيها، وهي الرحم، فما الجنين إلا مخلوق حي يتغذى ويتنفس ويتأثر بما يصيب بيئته المحدودة من اضطرابات، فهو يتأثر بنوع الغذاء الذي تتناوله الأم وبكميته كما يتأثر بالأمراض التي تتعرض لها الأم مثل الدفتريا والزهري والتيفود.

وقد ثبت بما لا يدع مجالاً للشك أن كثيرًا من الأمراض الجسمية تنتقل إلى الجنين عن طريق الوراثة، والرأي الراجح أن الوراثة تضع حدودًا عامة للذكاء والبيئة هي التي تحدد ملء هذا الفراغ بالتعليم والقدوة الحسنة، وكثير من حالات الضعف العقلي وراثية.

ولا نحب أن نسرد آراء العلماء وتجاربهم حول أثر البيئة وأثر الوراثة، ... وإنما

نكتفي بخلاصة هذه التجارب، وهي أن صفات الجسم هي أكثر الصفات تأثرًا بالوراثة، وتليها صفات العقل من حيث درجة التأثر بالوراثة، أما الصفات الخلقية كالصدق والأمانة، والعدالة وما إليها فهي أقل الصفات جميعًا تأثرًا بالوراثة، وقد وضع العلماء جداول تفصيلية دقيقة لأثر كل من الوراثة والبيئة في التكوين الإنساني يمكن الرجوع إليها في كتب المتخصصين.

ولكننا نخرج من هذا البحث بنتيجة هي أن النفس البشرية مكبلة بقيود الوراثة وأغلال البيئة، وأنها تكابد في التخلص من هذه القيود والأغلال عنتًا كبيرًا، وإن كان الغرور الإنساني يخيل للإنسان أنه إله قادر خلاق بما يملكه من قوة، وما يحرزه من مال ولكنه عاجز ضعيف، ولا سبيل أمامه لاقتحام هذه الأسوار المحيطة به إلا سبيل الاستعانة بقوة فوق قوته، وهذه القوة مصدرها الإيمان بالله والعمل الصالح: ﴿ وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مَخْرَجًا ﴾(١)، ﴿ وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مِنْ أَمْرِهِ يُسْرًا ﴾(٢)، ولهذا تتجلى حكمة الله في الدعاء الذي أمرنا بتكراره في الصلوات: ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ، اهدنَا الصِّرَاطَ الْمُستَقِيمَ ﴾(٣).

وبعد أن جلنا هذه الجولة العلمية في أعماق النفس البشرية أحب أن الفت نظركم، إلى أن القرآن الكريم لخصها أبدع تلخيص وصورها أبرع تصوير في عبارات قليلة موجزة، ولكنها موجهة، استمعوا إلى قوله تعالى في سورة البلد حيث يقول: ﴿ لا أُقْسِمُ بِهَذَا الْبَلَدِ، وَأَنتَ حِلٌّ بِهَذَا الْبَلَدِ، وَوَالِدٍ وَمَا وَلَدَ، لَقَدْ خَلَقْنَا الإِنسَانَ فِي كَبَدٍ ﴾(٤).

ألا ترون أن الله تعالى ينوه بالبيئة وهي البلد، وينوه بالوالدية وهي الوراثة، ثم يشير إلى أن ما يقاسيه الإنسان من عناء في الفكاك منهما، وأن غروره بقوته وماله لا ينفعه في التخلص منهما. وإنما ينفعه أن يستغل ما وهبه الله من حواس جسمية

(١) الآية ٢ من سورة الطلاق.

(٢) الآية ٤ من سورة الطلاق.

(٣) الآيات ٥ و ٦ من سورة الفاتحة.

(٤) الآيات ١ – ٤ من سورة البلد.

ومواهب عقلية مستعينًا بالله مهتديًا بهداه: ﴿ لا أُقْسِمُ بِهَذَا الْبَلَدِ، وَأَنتَ حِلٌّ بِهَذَا الْبَلَدِ، وَوَالِدٍ وَمَا وَلَدَ، لَقَدْ خَلَقْنَا الإِنسَانَ فِي كَبَدٍ، أَيَحْسَبُ أَن لَّن يَقْدِرَ عَلَيْهِ أَحَدٌ، يَقُولُ أَهْلَكْتُ مَالاً لُّبَدًا، أَيَحْسَبُ أَن لَّمْ يَرَهُ أَحَدٌ، أَلَمْ نَجْعَل لَّهُ عَيْنَيْنِ، وَلِسَانًا وَشَفَتَيْنِ، وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ، فَلا اقْتَحَمَ الْعَقَبَةَ، وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْعَقَبَةُ، فَكُّ رَقَبَةٍ، أَوْ إِطْعَامٌ فِي يَوْمٍ ذِي مَسْغَبَةٍ، يَتِيمًا ذَا مَقْرَبَةٍ، أَوْ مِسْكِينًا ذَا مَتْرَبَةٍ، ثُمَّ كَانَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ وَتَوَاصَوْا بِالْمَرْحَمَةِ، أُوْلَئِكَ أَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ، وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا هُمْ أَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ، عَلَيْهِمْ نَارٌ مُّؤْصَدَةٌ ﴾(١)، صدق الله العظيم.

تلخيص كامل لتكوين النفس الإنسانية وما يحيط بها من قيود وأغلال وما يملؤها من غرور وكبرياء، ورسم السبيل للخلاص من هذا السجن الرهيب والفكاك منه إلى التحرر والانطلاق نحو غاية الغايات وهو الاتصال بفاطر الأرض والسموات، وصدق الله تعالى إذ يقول: ﴿ وَالْعَصْرِ، إِنَّ الإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ، إِلا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ ﴾(٢).

....

أيها السادة:

أعود بكم كرة أخرى إلى عالم النفس البشرية لأتعرف معكم إليها في ضوء العلم الحديث، ثم في ضوء كتاب الله الخالد الكريم الذي ﴿ لا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَلا مِنْ خَلْفِهِ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴾(٣).

لقد كشف علماء النفس أن النفس البشرية تتكون من أجزاء ثلاثة هي: العقل الباطن والعقل الواعي والرقيب وسنتعرف إلى كل منهما على انفراد، ثم نعود إليها جملة فندرسها كلاً متكامل الأجزاء، ثم نرى كيف فصلها القرآن الكريم تفصيلاً يعجز عنه الباحثون ويكل عنه المتخصصون ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً.

---

(١) الآيات من ١ – ٢٠ من سورة البلد.
(٢) الآيات ١ – ٣ من سورة العصر.
(٣) الآية ٤٢ من سورة فصلت.

العقل الباطن:

وهو مكمن الغرائز ومصدر الشهوات ومنبع النزعات الحيوانية الحسية، ويسميه علماء النفس بالذات السفلى The Id، ويعرفونها بأنها الذات التي تحوي غرائز الإنسان في حالتها الهمجية الوحشية. وهي مع هذا منبع نشاطه الحيوي، ومصدر جميع طاقاته، وهي عمياء من الناحية الاجتماعية، ولا تعرف خيراً أو شراً ولا تميز بين صلاح وطلاح، وكل همها أن تصل إلى هدفها مباشرة محكومة في ذلك بمبدأ اللذة الحسية دون مراعاة للعواقب أو خضوع للعرف والتقاليد والأوضاع الاجتماعية، لأنها مطلقة من كل قيد، والغرائز البدائية التي تتحكم في هذه الذات دائمة الحركة والنشاط، تعمل جاهدة لكي تجد لنفسها مخرجًا، ولكي تشبع نزعاتها الحسية القاهرة حتى تخفف من حدة التوتر الذي يعصف فيها، وهي وراثية وتتجلى في الحيوان وفي الطفل الإنساني وفي الإنسان البدائي أو الذي نسميه الأناني، وهو الذي يشبه الحيوان، وتظل كامنة في الإنسان السوي تؤدي عملها وتنفذ رغباتها، ولكن بطريقة خفية مستورة، وتحت رقابة صارمة سنتحدث عنها بعد قليل.

والطاقات النفسية التي تندلع من الغرائز في عنف وقوة يسميها (فرويد) اللبيدو Libido، وهو تدور عنده حول عوامل الهدم والبناء، وهي في هذا تشبه عوامل الجذب والدفع الذي تنظم الكائنات المادية، وهذه الطاقة النفسية تنتظم عنده عوامل حفظ الذات، وعوامل حفظ النوع وعوامل الفناء. أو هي بإيجاز تعمل عنده على التركيب والحل أو البناء والهدم. والهدف النهائي عنده لعوامل الهدم هو إعادة البناء، وهي نظرية معقدة لا داعي للإفاضة فيها الآن.

العقل الظاهر:

وهو الذي يسميه علماء النفس (الأنا) أو الذات الشعورية، أو الشخصية الشعورية Concious The Ego ونحن نعلم أن الإنسان اجتماعي بطبعه، وأنه لا يستطيع أن يحيا منفرداً، ولكن للمجتمع أوضاعًا خاصة وقيوداً مرعية، وهو خاضع للعرف الخاص والتقاليد الموروثة والآداب العامة. والمجتمع في سبيل المحافظة

على كيانه يسن القوانين الوضعية ويضع النظم الأخلاقية، وهذا كله يتعارض مع الغرائز الحيوانية المهيمنة على الإنسان، وهنا تبزغ في النفس البشرية طاقة جديدة وهي التي يسميها علماء النفس (الأنا)، وهي منطقية معقولة متصلة بعالم الواقع اتصالاً مباشراً. وهي حلقة الاتصال بين النزعات الغريزية وأوضاع العالم الاجتماعي الخارجي وهي خلقية ترعى التقاليد والعرف والقانون، ولكنها تغفل في ساعات النوم، وفي هذه الساعات تنطلق الغرائز الحسية لتشبع بعض رغباتها المكبوتة عن طريق الأحلام.

(والأنا) هي الأداة التي يكيف بها الإنسان نزعاته طبقًا لمقتضيات البيئة وما بقي من هذه النزعات مما لا يتفق مع هذه المقتضيات يرتد ليغوص في أعماق اللاشعور.

وتستمد الذات قوتها ونشاطها من الذات الدنيا، ولذلك فهي تعمل جهدها على أن توفق بين مبدأ الواقع الذي ينبغي أن تلتزمه، وبين مبدأ اللذة الذي يتحكم في الذات السفلى، أي أنها تحاول أن ترضي الغرائز، ولكن بطريقة معقولة لا تصطدم بتقاليد العرف والقانون. فالعلاقة بين (الأنا) والذات السفلى أشبه بالعلاقة بين الفارس وجواده، فالجواد هو مصدر الحركة والطاقة ومنبع النشاط والقوة، وعلى الفارس أن ينتفع بهذه الطاقة فيرخي لجواده العنان ليركض ويصهل ويمرح، لكنه يقوم بتوجيهه ليجنبه المزالق والمخاطر والعثرات.

وإذا كان الفارس ضعيفًا فقد يجمح به الجواد فيدق عنقه أو يصيبه بخطر جسيم.

الذات العليا : (The Ego Ideal)

ويسميها علماء النفس الضمير اللاشعوري Super Ego، وكما تنبثق الأنا من الذات السفلى فإن الذات العليا تنفصل من الأنا في حالة تكونه، فكأن النفس مكانها دوحة باسقة تبتدئ بالذات السفلى وترتفع إلى الأنا، ثم ترتفع إلى تمام نموها بالذات العليا. وإن كانت الذات العليا تمتد من الأصول إلى الفروع، وهي في

هذا أشبه بالرحيق الذي ينتقل من البذور حتى يكون الثمار والأزهار. وطريقة نشوء الذات العليا هي أن الطفل حينما يبدأ اتصاله بالعالم الخارجي تتكون لديه (الأنا) نتيجة اتصاله شعوريًا بمصادر السلطة الخارجية، وأهمها سلطة الأب أو من يمثل الأب، وسلطة الأب هذه توجه السلوك، فهي تمنح أنواعًا من التصرفات وتبيح أنواعًا أخرى، والطفل يعجب بهذه السلطة لقوتها، ويحبها لحمايتها له، ولقيامها على إشباع رغباته، ويرهبها في الوقت نفسه، والرهبة مصدر من مصادر الإعجاب؛ لهذا نجد الطفل يقلد أباه ويعتبره مثله الأعلى، ويستعيد سلطاته لينهر أخاه الأصغر أو لينهر دميته على ما يتخيله من عمل لا يرضى عنه أبوه.

وتظل هذه الذات تنمو بنمو الإنسان متمثلة في سلطان الأب، ثم في سلطان المجتمع، وتتحكم في جميع التصرفات. فإذا فرضنا أن فردًا اشتاقت نفسه الدنيا لإشباع غريزة من الغرائز بطريقة لا يقرها العرف، فإن الذات العليا تقوم بعملية المنع أو بعملية السماح للأنا لإشباع هذه الغريزة بطريقة أخرى يقرها العرف. فكأن الذات العليا تقوم بتنظيم الصلة بين الغرائز أو الذات السفلى من ناحية، وبين الأنا من ناحية أخرى، والفرد عندما تتكون لديه الذات العليا يكون قد نصب على نفسه رقيبًا أو حاكمًا أو والدًا أو مجتمعًا يتصرف في نزعاته وغرائزه وينظم علاقتها بالأنا. والذات العليا بحكم تكوينها تتصل بالذات السفلى اللاشعورية كما تتصل بالذات الشعورية أو الأنا فهي بهذا تتصل بالشعور واللاشعور، وهي بهذا تهيمن هيمنة كاملة على النفس البشرية، ولهذا أطلق عليها علماء النفس اسم الرقيب Censo وسماها (فرويد) باسم الضمير اللاشعوري، ووصفها براون بقوله إنها الناقد اللاشعوري الأعلى لعقل الإنسان The Unconscious higher crit-ic of the mind وسبب تسميتها بالضمير اللاشعوري، أن الصفة الغالبة عليها هي اللاشعور وإن كانت منبثقة من الشعور وفيها جانب منه، وذلك لأنها تمثل سلطة الأب في مبدأ تكوينها، وسلطة الأب مكروهة لوقوفها في سبيل التعبير عن الغرائز بصورها الفطرية، ولكنها مقبولة في نفس الوقت لأنها سلطة الأب الذي يعطي ويحمي ويحب ويدلل ويشبع الكثير من الرغبات. ونتيجة لهذا التضارب هبط

الجانب المكروه في أعماق اللاشعور وظل الجانب المحبوب طافيًا على السطح.

هذه هي أقسام النفس الثلاثة، وقد تكون متآلفة متكاملة إذا استطاع الأنا إشباع الغرائز الحسية للذات السفلى، ورضي عن وسيلة هذا الإشباع الضمير أو الذات العليا.

أما إذا كبت الأنا هذه الغرائز وقمعها فإن نتيجة الكبت تكون عقداً نفسية وأمراضًا عصبية، وقد تنفجر الغرائز كما ينفجر البخار فيحطم ما يقف في طريقه من حواجز وقيود، ويهدم الشخصية الإنسانية أو يلقي بصاحبها في مهاوي السجون.

وقد ينقاد الأنا للذات السفلى فيرضيها بصرف النظر عن الرقيب، وهنا يقع الإنسان فريسة لعقاب الضمير وهو عقاب أليم، يبعث القلق ويؤرق الجفون، ويحطم الأعصاب.

وقد يضعف الرقيب ويمرض حتى يزول سلطانه الأعلى، وهنا يركن الإنسان إلى حضيض البهيمية العجماء.

أيها السادة:

هذه هي الصورة العلمية لعناصر النفس البشرية كما يصورها علم النفس الحديث فانظروا معي كيف صورها القرآن في أنصع صورة، وكيف جلاها في أوضح بيان قبل أن يكشفها العلم الحديث بثلاثة عشر قرنًا أو تزيد.

النفس الأمارة:

وهي التي يسميها علماء النفس بالذات الدنيا، والتي يقول الله تعالى فيها: ﴿**إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّيَ**﴾(١)، وهي نفس بهيمية محضة تنقاد لغرائزها العمياء، وأصحاب هذه النفس ينطوون في داخلها فلا يسمحون لعقولهم أو حواسهم أن تستجيب للأوضاع الاجتماعية أو الأخلاقية، وهم السواد

(١) الآية ٥٣ من سورة يوسف.

الغالب في الجماعات ويقول الله تعالى فيهم: ﴿ **وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ الْجِنِّ وَالإِنسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لاَّ يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لاَّ يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لاَّ يَسْمَعُونَ بِهَا أُوْلَئِكَ كَالأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُوْلَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ** ﴾(١).

وكثيراً ما يدعوهم القرآن الكريم إلى السير في فجاج الأرض ليتدبروا آياتها، وليتعظوا بما يسمعونه من أنباء الأمم السابقة لعل هذا التدبر وهذه المواعظ تسمو بهم عن الدرك الحيواني، وترتفع بهم إلى آفاق الهدى والرشاد، وتفتح أعينهم المغلقة على آثار رحمة الله. وكثيراً ما يدعوهم بهذه الدعوة فيقول: ﴿ **أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لا تَعْمَى الأَبْصَارُ وَلَكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ** ﴾(٢)، ولكن الذين حقت عليهم اللعنة يخلدون إلى الأرض ويتبعون أهواءهم، ويقنعون باللذات البهيمية ويتجنبون سبل الهداية، موصدين قلوبهم وعقولهم عن الحقائق، وهم الذين يقول الله فيهم: ﴿ **أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ إِنْ هُمْ إِلا كَالأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلا** ﴾(٣)، ويقول فيهم: ﴿ **وَالَّذِينَ كَفَرُوا يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ الأَنْعَامُ وَالنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ** ﴾(٤)، وهم ينحدرون في غوايتهم حتى يصبحوا أشبه بالصم البكم، ثم ينحدرون حتى يصبحوا في عداد الموتى: ﴿ **إِنَّكَ لا تُسْمِعُ الْمَوْتَى وَلا تُسْمِعُ الصُّمَّ الدُّعَاءَ إِذَا وَلَّوْا مُدْبِرِينَ، وَمَا أَنتَ بِهَادِي الْعُمْيِ عَن ضَلالَتِهِمْ إِن تُسْمِعُ إِلا مَن يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا فَهُم مُّسْلِمُونَ** ﴾(٥)، ولا عجب فهم ﴿ **أَمْوَاتٌ غَيْرُ أَحْيَاءٍ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ** ﴾(٦).

وهؤلاء لا سبيل إلى بعثهم من موتهم ولا إلى هدايتهم من ضلالهم، فلو

---

(١) الآية ١٧٩ من سورة الأعراف.

(٢) الآية ٤٦ من سورة الحج.

(٣) الآية ٤٤ من سورة الأنعام.

(٤) الآية ١٢ من سورة محمد.

(٥) الآيات ٨٠ – ٨١ من سورة النمل.

(٦) الآية ٢١ من سورة النحل.

أحاطت بهم المعجزات من جميع الجهات ﴿ وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا ﴾[١]، ﴿ وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَابًا فِي قِرْطَاسٍ فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ لَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴾[٢]، ﴿ وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَا إِلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ الْمَوْتَى وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ قُبُلًا مَّا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ يَجْهَلُونَ ﴾[٣]، ﴿ وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا مِّنَ السَّمَاءِ فَظَلُّوا فِيهِ يَعْرُجُونَ، لَقَالُوا إِنَّمَا سُكِّرَتْ أَبْصَارُنَا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَّسْحُورُونَ ﴾[٤]؛ وهم في هذا الضلال ينفرون من كل سبيل للهداية، ﴿ وَإِن يَرَوْا سَبِيلَ الْغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا ﴾[٥]؛ ﴿ وَمَن يَتَبَدَّلِ الْكُفْرَ بِالْإِيمَانِ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ ﴾[٦].

والغريزة التي تسيطر على هذا القطيع يسميها القرآن بالهوى ويقول فيها: ﴿ وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَى فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ ﴾[٧]، ويقول: ﴿ وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَن ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا ﴾[٨]، ويقول: ﴿ أَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ أَفَأَنتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا ﴾[٩].

والسبيل الوحيد للنجاة هو التسامي بهذه الغرائز، والتماس المنفذ للخروج من سجنها الرهيب: ﴿ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ اللَّهِ ﴾[١٠]، ﴿ أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَى عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَى سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ وَجَعَلَ عَلَى بَصَرِهِ غِشَاوَةً فَمَن يَهْدِيهِ مِن بَعْدِ اللَّهِ ﴾[١١].

---

(١) الآية ١٤ من سورة النمل.

(٢) الآية ٧ من سورة الأنعام.

(٣) الآية ١١١ من سورة الأنعام.

(٤) الآيات ١٤ و ١٥ من سورة الحجر.

(٥) الآية ١٤٦ من سورة الأعراف.

(٦) الآية ١٠٨ من سورة البقرة.

(٧) الآية ٢٦ من سورة ص.

(٨) الآية ٢٨ من سورة الكهف.

(٩) الآية ٤٣ من سورة الفرقان.

(١٠) الآية ٥٠ من سورة القصص.

(١١) الآية ٢٣ من سورة الجاثية.

والإنسان الذي يقنع بهذه المرحلة الدنيا هو الذي وصفه الله تعالى في آياته الكثيرة بقوله: ﴿ **إِنَّ الإِنسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ** ﴾[1]؛ ﴿ **وَكَانَ الإِنْسَانُ كَفُورًا** ﴾[2]، ﴿ **وَكَانَ الإِنسَانُ قَتُورًا** ﴾[3]، ﴿ **إِنَّ الإِنسَانَ لَكَفُورٌ مُّبِينٌ** ﴾[4]، ﴿ **إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولا** ﴾[5]، ﴿ **قُتِلَ الإِنسَانُ مَا أَكْفَرَهُ** ﴾[6]، ﴿ **إِنَّ الإِنسَانَ لَيَطْغَى، أَن رَّآهُ اسْتَغْنَى** ﴾[7]، ﴿ **إِنَّ الإِنسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنُودٌ** ﴾[8]، ﴿ **بَلْ يُرِيدُ الإِنسَانُ لِيَفْجُرَ أَمَامَهُ** ﴾[9].

هذا هو الإنسان الذي يعيش داخل غرائزه ويجعلها كل دنياه ويعبدها من دون الله.

وإذا كان علماء النفس يردون الغرائز إلى بضع عشرة غريزة فإن (فرويد) Frued يجعل محورها الغريزة الجنسية ويراها المسئول الأول عن كل ما يصدر عن الإنسان من نشاط، وهي بالتالي السبب الأول لكل صراع عقلي أو نفسي أو مرض عصبي، ولكن (أدار) Adir يخالف أستاذه فرويد في اعتبار الغريزة الجنسية أقوى الغرائز جميعها. بل يعد الغريزة الجنسية نفسها مظهراً من مظاهر حب السيطرة: فالأنانية وحفظ الذات هي أساس نظرية (أدار) والاضطرابات العصبية والأمراض النفسية عنده هي نتيجة فشل الإنسان في تحقيق نزعة الأنانية في السيطرة. أما يونغ Yung فيمزج بين النظريتين السابقتين، ويرى أن هاتين الغريزتين مظهران لطاقة واحدة، فإذا انصرف جانب من هذه الطاقة لتحقيق مطالب إحدى هاتين الغريزتين فإن ما

---

(١) الآية ٣٤ من سورة إبراهيم.
(٢) الآية ٦٧ من سورة الإسراء.
(٣) الآية ١٠٠ من سورة الإسراء.
(٤) الآية ١٥ من سورة الزخرف.
(٥) الآية ٧٢ من سورة الأحزاب.
(٦) الآية ١٧ من سورة عبس.
(٧) الآية ٦ و ٧ من سورة العلق.
(٨) الآية ٦ من سورة العاديات.
(٩) الآية ٥ من سورة القيامة.

يتبقى منها يتصرف حتمًا نحو تحقيق مطالب الغريزة الثانية، فإذا فشل الإنسان في الحب صرف طاقته إلى حب السيطرة من باب التعويض.

هذه أيها السادة هي النظريات العلمية فاستمعوا إلى القرآن الكريم، وكيف يرشدنا إلى أن الغريزة الجنسية هي الوسيلة لامتداد النسل، وإلى أن المال هو الوسيلة للسيطرة، وأن في هاتين الغريزتين إشباعًا للشهوات الدنيوية ولكن ما عند الله خيرٌ وأبقى. أنصتوا معي إلى قوله تعالى: ﴿ **زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللَّهُ عِندَهُ حُسْنُ الْمَآبِ** ﴾(١). واستمعوا إلى قوله جل شأنه: ﴿ **الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلا** ﴾(٢).

وتدبروا قوله تعالى: ﴿ **أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِ مِن مَّالٍ وَبَنِينَ، نُسَارِعُ لَهُمْ فِي الْخَيْرَاتِ بَل لا يَشْعُرُونَ** ﴾(٣)، وتأملوا قوله تعالى: ﴿ **يَوْمَ لا يَنفَعُ مَالٌ وَلا بَنُونَ، إِلا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ** ﴾(٤)، وقوله جل شأنه: ﴿ **وَمَا أَمْوَالُكُمْ وَلا أَوْلادُكُم بِالَّتِي تُقَرِّبُكُمْ عِندَنَا زُلْفَى إِلا مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَأُوْلَئِكَ لَهُمْ جَزَاءُ الضِّعْفِ بِمَا عَمِلُوا** ﴾(٥)، أما القلب السليم والسبيل إلى فكاكه من أسر هذه الغرائز فسنتحدث عنه بعد قليل.

والآن أنتقل بكم إلى القسم الثاني من النفس البشرية وهو:

النفس المسئولة:

وإذا كانت النفس الأمارة عمياء تنطلق في سبيل لذاتها كالعاصفة الهوجاء فإن النفس المسئولة مبصرة تعرف التقاليد المرعية، وتدرك الأوضاع الاجتماعية، وتميز

---

(١) الآية ١٤ من سورة آل عمران.

(٢) الآية ٤٦ من سورة الكهف.

(٣) الآية ٥٥ و ٥٦ من سورة المؤمنون.

(٤) الآية ٨٨ و ٨٩ من سورة الشعراء.

(٥) الآية ٣٧ من سورة سبأ.

العواقب وتقدر النتائج، لأن الله أراها طريق الخير والشر وعرفها سبيل الهدى والضلال: ﴿ وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا، فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا، قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا، وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّاهَا ﴾(١)، وقد منح الله صاحبها الحواس المدركة، والعقل المميز: ﴿ أَلَمْ نَجْعَل لَّهُ عَيْنَيْنِ، وَلِسَانًا وَشَفَتَيْنِ، وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ ﴾(٢)، ﴿ إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا ﴾(٣)، والسبيل إلى الهداية هو الإيمان العميق والعمل الصالح: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُمْ بِإِيمَانِهِمْ ﴾(٤)، ﴿ وَمَن يُؤْمِن بِاللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُ ﴾(٥). أما غير المؤمنين فلا سبيل إلى هدايتهم لأنهم يعيشون بلا هدف، ويعملون بلا غاية: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ لاَ يَهْدِيهِمُ اللَّهُ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾(٦).

أيها السادة:

ما خلق الله الجن والإنس إلا ليعبدوه، وعبادة الله هي الإيمان به، والاتجاه إليه والفناء فيه، وما فطرهم الله ليظلوا في حمأة الحيوانية البهيمية، وإنما فطرهم ليرتقوا منها ويسموا عنها ليكونوا جديرين بخلافته، خليقين بحمل أمانته، وإن يرتقوا حتى يؤمنوا بالغاية المثلى، والمثل الأعلى والهدف الأسمى، وهو الكمال المطلق الذي لا يتجلى إلا في الله وحده: ﴿ وَلِلَّهِ الْمَثَلُ الأَعْلَىَ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾(٧)، ﴿ وَلِلَّهِ الأَسْمَاء الْحُسْنَى فَادْعُوهُ بِهَا وَذَرُواْ الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَآئِهِ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴾(٨)، فالعبادة هي طلب الكمال والسمو إليه، والفناء فيه، ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ اتَّقُواْ اللَّهَ وَابْتَغُواْ إِلَيهِ الْوَسِيلَةَ وَجَاهِدُواْ

---

(١) الآيات ٧ - ١٠ من سورة الشمس.

(٢) الآيات ٨ - ١٠ من سورة البلد.

(٣) الآية ٣ من سورة الإنسان.

(٤) الآية ٩ من سورة يونس.

(٥) الآية ١١ من سورة التغابن.

(٦) الآية ١٠٤ من سورة النحل.

(٧) الآية ٦٠ من سورة النحل.

(٨) الآية ١٨٠ من سورة الأعراف.

فِي سَبِيلِهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾[1].

أما الذين يرفضون السمو ويقنعون بالحيوانية ويخلدون إلى التراب فشأنهم وما أرادوا: ﴿ **وَمَا ظَلَمَهُمُ اللَّهُ وَلَكِن كَانُواْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ** ﴾[2]، ﴿ **فَمَن شَاءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَاءَ فَلْيَكْفُرْ** ﴾[3]، ﴿ **قُلْ آمِنُواْ بِهِ أَوْ لاَ تُؤْمِنُواْ** ﴾[4]، فمن الناس من يستحب العمى على الهدى، ومن الناس من يشري نفسه ابتغاء مرضاة الله ومنهم من أعرضوا وتولوا، ﴿ **وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ فَهُمْ لا يَهْتَدُونَ** ﴾[5]، ومنهم: ﴿ **الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ أُوْلَئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللَّهُ وَأُوْلَئِكَ هُمْ أُوْلُوا الأَلْبَابِ** ﴾[6]، ﴿ **مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا وَمَا رَبُّكَ بِظَلامٍ لِّلْعَبِيدِ** ﴾[7]، ﴿ **أَفَأَنتَ تَهْدِي الْعُمْيَ وَلَوْ كَانُواْ لاَ يُبْصِرُونَ** ﴾[8].

النفس المسئولة هي موضع الابتلاء والاختبار ولم يضعها الله هذا الموضع إلا بعد أن زودها بالسمع والبصر والعقل، وسخر لها ما في الأرض والسموات وأرسل إليها الرسل وأنزل عليها الكتب، وبهذا طبق عليها قانون المسئولية والجزاء. ﴿ **إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْؤُولاً** ﴾[9]، ﴿ **فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ، عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ** ﴾[10]، ﴿ **وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولاً** ﴾[11].

---

(١) الآية ٣٥ من سورة المائدة.
(٢) الآية ٣٣ من سورة النحل.
(٣) الآية ٢٩ من سورة الكهف.
(٤) الآية ١٠٧ من سورة الإسراء.
(٥) الآية ٢٤ من سورة النمل.
(٦) الآية ١٨ من سورة الزمر.
(٧) الآية ٤٦ من سورة فصلت.
(٨) الآية ٤٣ من سورة يونس.
(٩) الآية ٣٦ من سورة الإسراء.
(١٠) الآيات ٩٢ و ٩٣ من سورة الحجر.
(١١) الآية ١٥ من سورة الإسراء.

ولابد من محاسبتهم على ما غمرهم الله به من نعيم، هل أدوا حقوق الله في خلقه ؟ أو جحدوا فضله ؟ وأشربوا الشح وانطووا على الكنود ونسوا الله فأنساهم أنفسهم، وغفلوا عن قوله تعالى: ﴿ثُمَّ لَتُسْأَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ﴾(١)، وتجاهلوا أن الله أنزل إليهم كتابًا حكيمًا ونورًا مبينًا، ﴿وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَكَ وَلِقَوْمِكَ وَسَوْفَ تُسْأَلُونَ﴾(٢)، ﴿لِيَسْأَلَ الصَّادِقِينَ عَنْ صِدْقِهِمْ وَأَعَدَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا أَلِيمًا﴾(٣).

والمسئولية تقتضي العدالة المطلقة فلكل نفس ما كسبت وعليها ما اكتسبت، ﴿كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ﴾؛ ﴿وَلاَ تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى﴾، ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا﴾، ﴿وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَى بِنَا حَاسِبِينَ﴾؛ ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ، وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ﴾.

والعدالة تقتضي أيضًا أن يكون التكليف في طاقة المكلفين، ﴿لاَ يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلاَّ وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ﴾(٤)، ﴿لا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلا مَا آتَاهَا﴾(٥)، ﴿وَلا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلا وُسْعَهَا وَلَدَيْنَا كِتَابٌ يَنطِقُ بِالْحَقِّ وَهُمْ لا يُظْلَمُونَ﴾(٦).

والعدالة تقتضي أيضًا التبصير والتذكير، والله سبحانه وتعالى أرسل رسله مبشرين ومنذرين: ﴿قَدْ جَاءَكُم بَصَائِرُ مِن رَّبِّكُمْ فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ عَمِيَ فَعَلَيْهَا﴾(٢٨٥)، ﴿كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾(٢٨٦).

---

(١) الآية ٨ من سورة التكاثر.
(٢) الآية ٤٤ من سورة الزخرف.
(٣) الآية ٨ من سورة الأحزاب.
(٤) الآية ٢٨٦ من سورة البقرة.
(٥) آية ٧ من سورة الطلاق.
(٦) الآية ٦٢ من سورة المؤمنون.
(٧) الآية ١٠٤ من سورة الأنعام.
(٨) الآية ١٠٣ من سورة آل عمران.

والآن ننتقل إلى القسم الثالث من أقسام النفس البشرية:

النفس اللوامة:

وهي ما يسميها علماء النفس بالرقيب أو الذات العليا وما نطلق عليها في اللغة العربية اسم الضمير، وهي تقابل في الطرف الآخر الذات السفلى، والنفس اللوامة تمثل السلطة العليا للمجتمع بما فيه سلطة الوالدين، وتقوم بملاحظة الأنا أو ما سميناه سابقًا بالنفس المسئولة. فالضمير هو الذي يتولى سؤالها ومحاسبتها ثم هو يجازيها بما تستحقه من ثواب أو عقاب، وهو الذي يعطيها الأوامر ويصدر الأحكام، ويحاسبها على الأعمال كما يحاسبها على النيات. وهو بهذا أقوى من القوانين التي تسنها الجماعات، والتي لا تأخذ إلا بالأعمال، بشرط أن تكون هذه الأعمال معلومة للجماعات، وما دامت النفس المسئولة خاضعة للضمير متفقة معه، وأمكن مع هذا الاتفاق إشباع الغرائز في النفس الأمارة بطريقة مشروعة إذا تم هذا عاش الإنسان في سكينة وأمان واطمئنان.

فوظيفة الضمير إذن هي الرقابة على العلاقة بين النفس الأمارة والنفس المسئولة. فإذا ثارت غريزة التملك في النفس الأمارة، وضغطت على النفس المسئولة اخترعت المبررات لتنفيذ رغباتها. وقد تضعف النفس المسئولة أمام هذه الرغبات إذا أمنت القانون والمجتمع، بعيدة عن الأنظار فتنفذ هذه الرغبة في خفية واستتار، ولكن الضمير يقف لهما بالمرصاد ويرسل الإنذار، والوعيد بعد الوعيد فإذا لم يستجيبا له وقع عليهما العقاب الصارم الشديد.

ولكن تكوين الضمير قد يكون ناقصًا فلا يؤدي مهمته خير أداء لأنه يمثل في مبدأ تكوينه سلطة الوالدين، ثم سلطة المجتمع، وقد يكون الوالدان منحرفين أو متعارضين، وقد يكون المجتمع منحلاً أو متداعيًا، وهنا يتكون الضمير تكوينًا مضطربًا أ و غير طبيعي فلا يؤدي مهمته خير أداء.

ومن هنا عالج القرآن الكريم الموضوع معالجة صريحة حاسمة، فدعا إلى تربية الضمير تربية دينية بحيث لا يمثل الوالدين أو المجتمع، وإنما يمثل جلال الله

وعظمته، وهو المثل الأعلى وغاية الغايات، والكمال المطلق الذي لا يعتريه ضعف أو نقصان، ﴿ لَكِنَّ اللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ ﴾(١)، والاتجاه إلى الله يستدعي أن يكون موضع المحبة حتى يعوض حب الوالدين والمجتمع. والحب لا يبلغ غايته حتى يكون متبادلاً، والله تعالى يقول: ﴿ قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾(٢)، ﴿ بَلَى مَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ وَاتَّقَى فَإِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ ﴾(٣)، ﴿ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ ﴾(٤)، ﴿ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ ﴾(٥)، ﴿ الَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ ﴾(٦)، وقد حدثنا الرسول ﷺ أنه: «لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من والده وولده والناس أجمعين»(٧)، وحب الرسول مشتق من حب الله.

وقد ورد في الحديث القدسي: «أنا عند ظن عبدي بي، وأنا معه حين يذكرني فإن ذكرني في نفسه ذكرته في نفسي، وإن ذكرني في ملأ ذكرته في ملأ خير منه وإن اقترب إلى شبراً اقتربت إليه ذراعاً، وإن اقترب إلى ذراعاً اقتربت له باعاً، وإن أتاني يمشي أتيته هرولة»(٨)، وعن النبي ﷺ: «ثلاث من كن فيه وجد حلاوة الإيمان في قلبه: أن يكون الله ورسوله أحب إليه من سواهما، وأن يحب المرء لا يحبه إلا لله تعالى، وأن يكره أن يعود في الكفر كما يكره أن يقذف في النار»(٩)، وفي حديث آخر رواه أبو داوود: «من أحب لله وأبغض لله وأعطى لله ومنع لله فقد استكمل الإيمان»، وهناك ظاهرة نفسية أيها السادة – قررها علماء النفس ومنها ينزلق الضمير أو ينخدع فيهبط إلى الحضيض، وهي ما يسميها

---

(١) الآية ٧ من سورة الحجرات.
(٢) آية ٣١ من سورة آل عمران.
(٣) آية ٧٦ من سورة آل عمران.
(٤) آية ١٥٩ من سورة آل عمران.
(٥) الآية ٢٢٢ من سورة البقرة.
(٦) الآية ١٦٥ من سورة البقرة.
(٧) مسلم عن أنس بن مالك ك/ الإيمان ب/ وجوب محبة رسول الله ﷺ (٦٣).
(٨) البخاري عن أبي هريرة ك/ التوحيد ب/ قوله تعالى: ويحذركم الله نفسه (٦٨٥٦).
(٩) البخاري عن أنس ك/ الإكراه ب/ من اختار الضرب والقتل والهوان على الكفر (٦٤٦٨).

علماء النفس باسم التبرير Rationalisation والتبرير نوع من التحايل والمخادعة تقوم به الغرائز لتخدع به النفس المسئولة وقد تخدع به الضمير، فالسارق يبرر سرقته بحاجته إلى الطعام والشراب وبأن المسروق لا حاجة له بهذه الأموال المكدسة. والمرتشي يبرر الرشوة بأن غيره من الكبار يرتشون، وأنه يؤدي خدمة في مقابل هذه الرشوة، والقاتل يبرر القتل بأن القتيل يستحق هذا المصير، وهكذا يتلمس العقل الباطن كل السبل ويخترع جميع المبررات ليشبع ما فيه من غرائز وشهوات. وقد سرد الله علينا طائفة من هذه المبررات الخداعة التي يتذرع بها الضالون؛ فهم يبررون الكفر بإتباع سنة الآباء والأجداد، ويبررون نفرتهم من الأنبياء بأنهم اتبعهم الأرذلون، ويبررون عبادتهم الأوثان بأنها تقربهم إلى الله زلفى، ويبررون انصرافهم عن الدين بعدم حاجتهم إليه ﴿ **وَقَالُوا نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَالا وَأَوْلادًا وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ** ﴾[1]، ويبررون بخلهم بان الله قادر على تيسير الرزق للفقراء: ﴿ **وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ أَنفِقُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنُطْعِمُ مَن لَوْ يَشَاءُ اللَّهُ أَطْعَمَهُ إِنْ أَنتُمْ إِلا فِي ضَلالٍ مُبِينٍ** ﴾[2]، وفي هؤلاء المخادعين الذين: ﴿ **يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَمَا يَخْدَعُونَ إِلاَّ أَنفُسَهُم وَمَا يَشْعُرُونَ** ﴾[3]، في هؤلاء وأمثالهم يقول الله تعالى: ﴿ **أَفَمَن زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ فَرَآهُ حَسَنًا فَإِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ** ﴾[4]، ويقول: ﴿ **وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ فَهُمْ لا يَهْتَدُونَ** ﴾[5]. ولكن الله سبحانه وتعالى يلفتنا إلى أن الضمير اليقظ الذي تربى تربية دينية صحيحة، لا يمكن أن تخدعه هذه الحيل، أو تغشه هذه المبررات: ﴿ **بَلِ الإِنسَانُ عَلَى نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ، وَلَوْ أَلْقَى مَعَاذِيرَهُ** ﴾[6]. ويصف الضمير بأنه خير حافظ للإنسان من المزالق: ﴿ **إِن كُلُّ نَفْسٍ لَمَّا عَلَيْهَا حَافِظٌ** ﴾[7]، وإذا حدث أن تعرض الضمير الحي للخديعة فإنه لا

---

(١) الآية ٣٥ من سورة سبأ.
(٢) الآية ٤٧ من سورة يس.
(٣) الآية ٩ من سورة البقرة.
(٤) الآية ٨ من سورة فاطر.
(٥) الآية ٢٤ من سورة النمل.
(٦) الآيات ١٤ و ١٥ من سورة القيامة.
(٧) الآية ٤ من سورة الطارق.

يلبث أن يتيقظ ليصلح ما أخطأ: ﴿ الَّذِينَ إِذَا فَعَلُواْ فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُواْ أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُواْ اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُواْ لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلاَّ اللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّواْ عَلَى مَا فَعَلُواْ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾[1]، والضمير الحي اليقظ إذا استمر في مراعاة الله واتقاه طهره الله ونقاه، وأودع فيه دليلاً يرشده وهاديًا يهديه، قال تعالى: ﴿ يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ إِن تَتَّقُواْ اللَّهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَاناً وَيُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ﴾[2]، وشتان بين من يتجه إلى الله ويعبده، وبين من يعرض عنه ويتبع هواه: ﴿ أَفَمَن كَانَ عَلَى بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِ كَمَن زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءهُمْ ﴾[3]، ﴿ ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ مَوْلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَأَنَّ الْكَافِرِينَ لاَ مَوْلَى لَهُمْ ﴾[4].

أيها السادة:

هذه هي شعب النفس الثلاثة كما صورها علم النفس، وكما أبرزها القرآن الكريم في لوحات فنية قبل أن يعرف علم النفس طريقه بأكثر من ألف وثلاثمائة عام.

ولم يكتف القرآن الكريم بإبراز هذه الجوانب بل وضع طريقة ورسم منهجًا لإعلائها، والرقي بها في مراحل متلاحقة حتى يصل الإنسان بها إلى مداه، أو يستحق بها خلافة الله.

ومن الملاحظ أن الديانات السابقة تعمل على إضعاف الذات السفلى وكبح جماحها والحد من طاقاتها، مع أنها الجزء الأساسي والعامل الهام في الطاقة البشرية...

وقد تناول علماء النفس شرح الكبت Repression وما يترتب عليه من أخطار تحدث نتيجة لرد الفعل العنيف، وللصدمة القوية التي توقف الاندفاع الجامح

(١) الآية ١٣٥ من سورة آل عمران.

(٢) الآية ٢٩ من سورة الأنفال.

(٣) الآية ١٤ من سورة محمد.

(٤) الآية ١١ من سورة محمد.

للغرائز، وتطفئ النار المتأججة، ولكن الغرائز لا يمكن أن تموت، والنار لا يمكن أن تتحول إلى رماد، وإنما تكمن حينًا لتنفجر كالبركان الثائر لتدمر كل شيء تدميرًا، أو تغلي في أعماق الذات السفلى فتتحول إلى عقدة نفسية Complex تنحرف بصاحبها عن الصراط السوي وتشذ به عن النهج القويم. وقد تؤدي إلى (النورستانيا) أو الشلل الهستيري أو القلق العصابي، وقد تؤدي إلى الصم أو البكم أو العمى أو خفقان القلب، أو بعض أنواع الذبحات الصدرية أو المغص الكلوي أو القرحة أو الصداع الحاد أو الربو، وقد تؤدي إلى الجنون:

والنار تأكل نفسها إن لم تجد ما تأكله

وقد (نصح) فرويد بإشباع هذه الغرائز التماسًا للصحة النفسية، وفي تنفيذ هذه النصيحة هدم للمجتمع، وإهدار للكرامة الإنسانية، ورجوع بالإنسانية إلى حياة الغابات والأحراش، أما الديانات السابقة للإسلام فقد نصحت بالكبح والكبت والحرمان، فالبوذية توصى بالتزام النيرفانا Nirvana وهي إطفاء الشهوات وإماتة الحواس، واليهودية تنادي بقتل النزعات الحسية: ﴿ **فَتُوبُواْ إِلَى بَارِئِكُمْ فَاقْتُلُواْ أَنفُسَكُمْ** ﴾[١]، والمسيحية تنادي بالرهبانية والزهد في الطيبات. وفي محاربة الغرائز كبت للطاقات النفسية وقمع للقوى الحيوية يعرض الإنسان للوبال والدمار. أما الإسلام فيعالج الأمر بأسلوب آخر: فهو يدعو لإشباع الغرائز ولكن بطريقة مشروعة، وفي غير مبالغة أو إسراف، فلا رهبانية في الإسلام ولا زهد فيه ولا حرمان: ﴿ **يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ** ﴾[٢]، ﴿ **وكُلُواْ وَاشْرَبُواْ وَلاَ تُسْرِفُواْ** ﴾[٣]، ويعارض المنادين بالزهد في الحياة هاتفًا بهم: ﴿ **قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِيَ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالْطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ** ﴾[٤]، ثم ينبه المسلمين إلى الزواج ﴿ **وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ مِنَ الْمَاءِ بَشَرًا**

---

(١) الآية ٥٤ من سورة البقرة.

(٢) الآية ٥١ من سورة المؤمنون.

(٣) الآية ٣١ من سورة الأعراف.

(٤) الآية ٣٢ من سورة الأعراف.

فَجَعَلَهُ نَسَبًا وَصِهْرًا ﴾[١]، ﴿ **وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِّتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً** ﴾[٢]، ﴿ **يَسْأَلُونَكَ مَاذَا أُحِلَّ لَهُمْ قُلْ أُحِلَّ لَكُمُ الطَّيِّبَاتُ** ﴾[٣].

والرسول صلوات الله عليه ينهى عن التزمت والتشدد في الدين وينادي بأن نوغل فيه برفق، ويعلمنا أنه أشدنا خوفًا لله وأنه مع هذا يصوم ويفطر، ويقوم وينام، ويتزوج ويتناول الطيبات، وينادى بأن هذه سنته، وأنه «من رغب عن سنتي فليس مني»[٤].

فالإسلام لا يكبح الغرائز وإنما ينظمها ويوفق بين رغباتها وبين الأوضاع الاجتماعية، فإذا حالت الأوضاع الاجتماعية والتقاليد الخلقية دون إشباع هذه الرغبات أشبعها الإسلام من ناحية أخرى، وهي التي يسميها علماء النفس بطريقة الإبدال Substitution وهي إرواء الغريزة عن طريق غريزة أخرى أو بطريقة التسامي Sublimation وهي تحويل مجرى الغريزة في تيار مناسب يتسق مع تعاليم المجتمع.

والإسلام يعالج الأمر عن هذين الطريقين قبل أن يكتشفها علماء النفس بمئات السنين، فهو يستبدل اللذة المعنوية باللذة الجسمية، ويؤثر النشوة الروحية على النشوة البهيمية، ويوجه الطاقات الحسية إلى الطاقات العلمية، ويشغل أوقات الفراغ بالعبادة، أو بطلب العلم، أو بالسعي في سبيل الرزق، فمن أعجزته وسيلة الزواج أو التسري، وجد منفذًا لطاقاته في الصيام أو في الدراسات العلمية، ومن أعوزه الطعام حمل حبله على عاتقه واحتطب أو حمل عصاه ورعى الغنم، ومن ضاقت به سبل العيش في بلد هاجر إلى بلد آخر: ﴿ **وَمَن يُهَاجِرْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يَجِدْ فِي الْأَرْضِ مُرَاغَمًا كَثِيرًا وَسَعَةً** ﴾[٥]، ﴿ **يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ أَرْضِي وَاسِعَةٌ فَإِيَّايَ فَاعْبُدُونِ** ﴾[٦].

---

(١) الآية ٥٤ من سورة الفرقان. (٢) الآية ٢١ من سورة الروم.
(٣) الآية ٤ من سورة المائدة.
(٤) البخاري عن أنس بن مالك ك/ النكاح ب/ الترغيب في النكاح (٤٦٧٥).
(٥) الآية ١٠٠ من سورة النساء.
(٦) الآية ٥٦ من سورة العنكبوت.

ثم هناك الجهاد في سبيل الله بالمال والنفس، وهنا تجد الطاقات الحسية منفذاً للسمو والاستعلاء.

....

والإسلام بعد هذا كله يدعوا إلى العزة والكرامة والسمو من حال إلى حال وهذا ما يسميه الرسول صلوات الله عليه بالجهاد الأكبر، وبه يخرج الإنسان من ربقة النفس الأمارة إلى ساحة النفس المسئولة، ومنها يهاجر إلى آفاق الذات العليا أو النفس اللوامة، وهي هجرة معنوية من قرارة الأرض إلى أعلى السموات. وفي هذا يقول الله تعالى: ﴿ **وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا** ﴾(١)، ويقول جل شأنه: ﴿ **إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَٰئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ اللَّهِ** ﴾(٢)، ويقول عز من قائل: ﴿ **وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي اللَّهِ مِن بَعْدِ مَا ظُلِمُوا لَنُبَوِّئَنَّهُمْ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَلَأَجْرُ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ** ﴾(٣)، وفي هذا يقول ﷺ: «إنما الأعمال بالنيات وإنما لكل امرئ ما نوى فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله فهجرته إلى الله ورسوله، ومن كانت هجرته إلى دنيا يصيبها أو امرأة ينكحها فهجرته إلى ما هاجر إليه»(٤)، ويقول عليه الصلاة والسلام: «المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده والمهاجر من هجر ما نهى الله عنه»(٥)، ويقول أيضاً: «لا تنقطع الهجرة حتى تنقطع التوبة، ولا تنقطع التوبة حتى تطلع الشمس من مغربها».

وهذه الهجرة الروحية إن لم يصحبها الإيمان الثابت واليقين المتين والعمل الدائب والجهاد المستمر – فقد تتعرض للنكسة، أو ما يسميه علماء النفس بالنكوص Re-gression ولهذا وصف الله تعالى المؤمنين بأنهم البعيدون عن الريب والشكوك ﴿ **إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَٰئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ** ﴾(٦).

---

(١) الآية ٦٩ من سورة العنكبوت. (٢) الآية ٢١٨ من سورة البقرة.
(٣) الآية ٤١ من سورة النحل.
(٤) البخاري عن عمر بن الخطاب ك/ بدء الوحي ب/ بدء الوحي (١).
(٥) البخاري عن عبد الله بن عمر ك/ الإيمان ب/ المسلم من سلم المسلمون (٩).
(٦) الآية ١٥٤ من سورة الحجرات.

والوسيلة إلى بلوغ هذه الغاية هو أن يشغل الإنسان غرائزه وعواطفه بمراعاة الله وتقواه، فغريزة الخوف يجعلها متعلقة بالله وحده ﴿ **وَاللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَاهُ** ﴾[١]، وغريزة المقاتلة يجعلها في سبيل الله، ﴿ **إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًّا كَأَنَّهُم بُنْيَانٌ مَّرْصُوصٌ** ﴾[٢]، وغريزة الفرار يصلها بالله ﴿ **فَفِرُّوا إِلَى اللَّهِ إِنِّي لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ** ﴾[٣]، وغريزة حب الاستطلاع يوجهها إلى البحث والدرس والتأمل في ملكوت السموات والأرض: ﴿ **أَوَلَمْ يَنظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ مِن شَيْءٍ** ﴾[٤]، وهكذا يمكن التسامي بجميع الغرائز الحسية، أما العواطف الوجدانية فينبغي أن تتجه هي أيضًا إلى الله، فالإنسان السوي يحب في الله ويبغض في الله، وقد ورد في الحديث الشريف عن النبي ﷺ: «أفضل الأعمال الحب في الله والبغض في الله»، وقال ﷺ: «المرء مع من أحب»[٥]، وقد ورد في الحديث القدسي عن الله عز وجل: «المتحابون في جلالي لهم منابر من نور يغبطهم النبيون والشهداء»[٦]، وورد في الحديث القدسي: «ما يزال عبدي يتقرب إلى بالنوافل حتى أحبه فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به وبصره الذي يبصر به ويده التي يبطش بها ورجله التي يمشي بها، ولئن سألني لأعطينه ولئن استعاذني لأعيذنه»[٧]، وقد وردت آيات كثيرة في القرآن الكريم عن حب الله لعباده المتقين: ﴿ **إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ** ﴾[٨]، ﴿ **إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ** ﴾[٩]، ﴿ **إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ** ﴾[١٠]، ﴿ **إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ** ﴾[١١]، ويقول الله تعالى: ﴿ **قُلْ إِن كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ**

---

(١) الآية ٣٧ من سورة الأحزاب.
(٢) الآية ٤ من سورة الصف.
(٣) الآية ٥٠ من سورة الذاريات.
(٤) الآية ١٨٥ من سورة الأعراف.
(٥) البخاري عن عبد الله ك/ الأدب ب/ علامة حب الله عز وجل (٥٧٠٢).
(٦) الترمذي عن معاذ بن جبل ك/ الزهد ب/ ما جاء في الحب في الله (٢٣١٢).
(٧) البخاري عن أبي هريرة ك/ الرقاق ب/ التواضع (٦٠٢١).
(٨) الآية ٤ أو ٧ من سورة التوبة.
(٩) الآية ٢٢٢ من سورة البقرة.
(١٠) الآية ١٩٥ من سورة البقرة.
(١١) الآية ١٥٩ من سورة آل عمران.

وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ ﴾[1]، والمؤمن إذا اشتغل قلبه بمحبة الله أمن على نفسه من النكوص أو النكسة أو الانحدار الذي يسببه ضعف الإيمان ووساوس الشيطان، وقد حذرنا الله تعالى من هذه النكسة فقال: ﴿ وَلَا تَتَّخِذُوا أَيْمَانَكُمْ دَخَلًا بَيْنَكُمْ فَتَزِلَّ قَدَمٌ بَعْدَ ثُبُوتِهَا ﴾[2]، أما الناكصين المنزلقين فيقول فيهم: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ ارْتَدُّوا عَلَى أَدْبَارِهِم مِّن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْهُدَى الشَّيْطَانُ سَوَّلَ لَهُمْ وَأَمْلَى لَهُمْ ﴾[3]، ويقول فيهم: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا ثُمَّ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا ثُمَّ ازْدَادُوا كُفْرًا لَّمْ يَكُنِ اللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ سَبِيلًا ﴾[4]، ويقول عز من قائل: ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَن يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَى حَرْفٍ فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ اطْمَأَنَّ بِهِ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ انقَلَبَ عَلَى وَجْهِهِ خَسِرَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةَ ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ ﴾[5].

أما الصادقون المؤمنون فإن الله يعينهم على الاستقرار: ﴿ يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَيُضِلُّ اللَّهُ الظَّالِمِينَ وَيَفْعَلُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ ﴾[6].

أيها السادة:

إن الرحلة التي يأمرنا بها الله والهجرة التي يدعونا إليها الرسول ﷺ للانتقال من دركات الحياة البهيمية إلى آفاق السموات الروحية، هي رحلة شاقة مضنية تعترضها العقبات، وتحفها المشقات، وتحيط بها المكاره، وفي هذا يقول الرسول

---

(١) الآية ٢٤ من سورة التوبة.

(٢) الآية ٩٤ من سورة النحل.

(٣) الآية ٢٥ من سورة محمد.

(٤) الآية ١٣٧ من سورة النساء.

(٥) الآية ١١ من سورة الحج.

(٦) الآية ٢٧ من سورة إبراهيم.

صلوات الله عليه: «حفت الجنة بالمكاره، وحفت النار بالشهوات»[1]، والأمر يقتضي جهاداً طويلاً سماه الرسول ﷺ بالجهاد الاكبر، وهو يحتاج إلى زاد كثير أوصانا الله به حيث قال: ﴿وَتَزَوَّدُواْ فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى وَاتَّقُونِ يَا أُوْلِي الأَلْبَابِ﴾[2]، ولعل مشاق الرحلة هي التي أشار إليها أحد الصوفيين في عبارته الرمزية الموحية حيث يقول:

كيف الوصول إلى سعاد ؟ ودونها قلل الجبال، وبينهن حتوف

والرجل حافية ، ومالي مركب والكف صفر، والطريق مخوف

ولكن هذه الرحلة على ما فيها من أخطار وأخطار يعين الله عباده عليها إذا اتجهوا إليه واعتمدوا عليه ووثقوا فيه: ﴿اللّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُواْ يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّوُرِ وَالَّذِينَ كَفَرُواْ أَوْلِيَآؤُهُمُ الطَّاغُوتُ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ أُوْلَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾[3]، وهذه المعونة الإلهية تتجلى في أن يمنح الله المؤمنين نوراً يضيء أمامهم ظلمات الطريق: ﴿قَدْ جَاءكُم مِّنَ اللّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُّبِينٌ، يَهْدِي بِهِ اللّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلاَمِ وَيُخْرِجُهُم مِّنِ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾[4]، وفي هذا يقول الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَآمِنُوا بِرَسُولِهِ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِن رَّحْمَتِهِ وَيَجْعَل لَّكُمْ نُوراً تَمْشُونَ بِهِ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾[5]، وشتان بين من يسير تحت أشعة الأضواء في طريق واضح مرسوم، ومن يتخبط في الظلمات خبط عشواء: ﴿أَوَ مَن كَانَ مَيْتاً فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُوراً يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا﴾[6]، ﴿وَمَن يُؤْمِن بِاللَّهِ يَهْدِ

---

(١) مسلم عن أنس بن مالك ك/ الجنة وصفة نعيمها وأهلها ب/ باب (٥٠٤٩).
(٢) الآية ١٩٧ من سورة البقرة.
(٣) الآية ٢٥٧ من سورة البقرة.
(٤) الآيات ١٥ و ١٦ من سورة المائدة.
(٥) الآية ٢٨ من سورة الحديد.
(٦) الآية ١٢٢ من سورة الأنعام.

قَلْبَهُ ﴾[١]، ﴿ وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِن نُّورٍ ﴾[٢].

ومن لطف الله بالإنسان أنه يعلم ضعفه البشري، ويعلم أنه عرضة للخطأ والنسيان والعجز، ولكن الله الرحمن الرحيم رفع عنه الخطأ والنسيان وما أكره عليه، وفتح أمامه أبواب التوبة والمغفرة، ووعد بأنه إذا رجع إلى الله وأناب إليه بدل حسناته سيئات وأنسى الحفظة ذنوبه، ﴿ إِنَّ رَبَّكَ وَاسِعُ الْمَغْفِرَةِ هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ إِذْ أَنشَأَكُم مِّنَ الأَرْضِ وَإِذْ أَنتُمْ أَجِنَّةٌ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ فَلا تُزَكُّوا أَنفُسَكُمْ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اتَّقَى ﴾[٣].

وفي نهاية هذه الرحلة يطهر الله قلب الإنسان ويزكيه، ويعطيه الحكمة التي تعصمه من النكسة والانحدار: ﴿ يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَن يَشَاءُ وَمَن يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا ﴾[٤].

وقد وصف الله أنبيائه بالحكمة مع وصفهم بالعلم والنبوة فقال تعالى: ﴿ أُولَئِكَ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ ﴾[٥]، وقال في يوسف عليه السلام: ﴿ وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا ﴾[٦]، وقال في لوط: ﴿ وَلُوطًا آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا ﴾[٧]، وفي موسى: ﴿ وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَاسْتَوَى آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا ﴾[٨]، وفي سليمان وداود ﴿ وَكُلاًّ آتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا ﴾[٩]، وفي داود: ﴿ وَآتَيْنَاهُ الْحِكْمَةَ وَفَصْلَ الْخِطَابِ ﴾[١٠]، ومن الله على لقمان بالحكمة: ﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا لُقْمَانَ الْحِكْمَةَ ﴾[١١]، وأنعم الله على رسوله ﷺ فيما انعم عليه

(١) الآية ١١ من سورة التغابن.
(٢) الآية ٤٠ من سورة النور.
(٣) الآية ٣٢ من سورة النجم.
(٤) الآية ٢٦٩ من سورة البقرة.
(٥) الآية ٨٩ من سورة الأنعام.
(٦) الآية ٢٢ من سورة يوسف.
(٧) الآية ٧٤ من سورة الأنبياء.
(٨) الآية ١٤ من سورة القصص.
(٩) الآية ٧٩ من سورة الأنبياء.
(١٠) الآية ٢٠ من سورة ص.
(١١) الآية ١٢ من سورة لقمان.

بالحكمة فقال: ﴿ وَأَنزَلَ اللَّهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُنْ تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا ﴾(١)، وحينما يمتلئ قلب المؤمن بالحكمة فإنه يكون قد بلغ مرتبة الإخلاص واستحق أن يصفه الله بأنه من عباده المخلصين وكان أهلاً لاصطفاء الله وولايته، وكان جديراً بالأمن والاطمئنان والنجاة من المخاوف والأحزان: ﴿ أَلا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾(٢).

وإذا وصلت النفس البشرية إلى هذه القمة السامقة عمتها السكينة وحفتها الرحمة وشملها الرضوان: ﴿ هُوَ الَّذِي أَنزَلَ السَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوا إِيمَانًا مَّعَ إِيمَانِهِمْ ﴾(٣)، لأن النفس في هذه الحالة تكون مطمئنة في ذكر الله: ﴿ الَّذِينَ آمَنُواْ وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ اللَّهِ أَلاَ بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ ﴾(٤).

وهذه المرتبة السامية يسميها القرآن مرتبة النفس المطمئنة، وهي المرتبة التي لم تسمو إليها معارف علماء النفس المحدثين، لأنها فوق مناط العلماء والباحثين، وفيها يقول القرآن الكريم: ﴿ يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ، ارْجِعِي إِلَى رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً، فَادْخُلِي فِي عِبَادِي، وَادْخُلِي جَنَّتِي ﴾(٥)، وأرجو أن تتدبروا معي عبارة راضية مرضية وما تحمله من آفاق سامية، ومن تكريم عظيم لأصحاب هذه النفوس العالية التي تتبادل الرضوان مع فاطر الأرض والسموات، هم الذين تتلقاهم الملائكة طيبين: ﴿ سَلاَمٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ ﴾(٦)، ﴿ تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلائِكَةُ أَلا تَخَافُوا وَلا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ، نَحْنُ أَوْلِيَاؤُكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الآخِرَةِ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِي أَنفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ، نُزُلاً مِّنْ غَفُورٍ رَّحِيمٍ ﴾(٧).

---

(١) الآية ١١٣ من سورة النساء.
(٢) الآية ٦٢ من سورة يونس.
(٣) الآية ٤ من سورة الفتح.
(٤) الآية ٢٨ من سورة الرعد.
(٥) الآيات ٢٧ – ٣٠ من سورة الفجر.
(٦) الآية ٢٤ من سورة الرعد.
(٧) الآية ٣٠ – ٣٢ من سورة فصلت.

وبعد:

فهذه المراحل أيها السادة، قد وصفها القرآن الكريم كما رأينا وصفًا دقيقًا ووضح معالمها وبين وسائل اجتيازها، وأعان السالكين فيها على بلوغ غايتها لو شاء إدراك هدفها النبيل.

ولم يكتف القرآن بهذا، بل وصف لنا السالكين في هذه المرحلة، وان بعضهم قد ينقطع به الطريق، وأن بعضهم قد يؤثر الراحة على التعب فيخلد إلى الثرى ويقارن بالبهيمية الحيوانية، وبعضهم قد يصل إلى منتصف الطريق فيخلط عملاً صالحًا وآخر سيئًا وبعضهم قد يصل إلى نهاية الطريق، وقد جعلهم القرآن الكريم ثلاث طوائف: ﴿**فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ بِإِذْنِ اللَّهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ**﴾(١)، فأما الظالمون فهم أهل اليسار وهم حطب النار، وأما المقتصدون فقد: ﴿**خَلَطُواْ عَمَلاً صَالِحًا وَآخَرَ سَيِّئًا عَسَى اللَّهُ أَن يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ**﴾(٢). وإذا حقت لهم التوبة فهم أصحاب اليمين، وأما السابقون بالخيرات فأولئك المقربون الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقًا، واقرءوا معي قوله تعالى في هذه الطوائف الثلاث: ﴿**فَأَمَّا إِن كَانَ مِنَ الْمُقَرَّبِينَ، فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّةُ نَعِيمٍ، وَأَمَّا إِن كَانَ مِنَ أَصْحَابِ الْيَمِينِ، فَسَلَامٌ لَّكَ مِنْ أَصْحَابِ الْيَمِينِ، وَأَمَّا إِن كَانَ مِنَ الْمُكَذِّبِينَ الضَّالِّينَ، فَنُزُلٌ مِّنْ حَمِيمٍ، وَتَصْلِيَةُ جَحِيمٍ، إِنَّ هَذَا لَهُوَ حَقُّ الْيَقِينِ، فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ**﴾(٣)، واقرءوا معي قوله تعالى: ﴿**فَأَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ مَا أَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ، وَأَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ مَا أَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ، وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ، أُوْلَئِكَ الْمُقَرَّبُونَ، فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ**﴾(٤).

أيها السادة: هذه هي جوانب النفس البشرية كما صورها القرآن الكريم، وقد

---

(١) الآية ٣٢ من سورة فاطر.

(٢) الآية ١٠٢ من سورة التوبة.

(٣) الآيات ٨٨ - ٩٦ من سورة الواقعة.

(٤) الآيات ٨ - ١٢ من سورة الواقعة.

قمنا معكم فيها برحلة طويلة، جبنا فيها خلالها، واجتزناها من الحضيض إلى القمة وشاهدنا ما فيها من مهاو عميقة وسفوح متدرجة، وقمم باذخة. فمن أراد الوصول إلى الذروة العليا شمر عن ساعد الجد وواصل الكد والجهد، وقرر الحزم بالعزم والوجل بالأمل. واحتمل المشقات، ونبذ الشهوات، واستعان بفاطر الأرض والسموات، فمن خطب الحسناء لم يغلها المهر، وصدق رسول الله ﷺ حيث يقول: «من خاف أدلج ومن أدلج بلغ المنزل، ألا إن سلعة الله غالية، ألا إن سلعة الله الجنة»[1]، وصدق الله تعالى: ﴿**إِنَّ هَٰذِهِ تَذْكِرَةٌ فَمَن شَاءَ اتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِ سَبِيلًا**﴾[2].

وأختم محاضرتي بما بدأتها به مرتلاً قوله تعالى: ﴿**وَفِي أَنفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ**﴾[3].

والسلام عليكم ورحمة الله

* * *

(١) الترمذي عن أبي هريرة ك/ صفة القيامة والرقائق والورع ب/ ما جاء في صفة أواني الحوض (٢٣٧٤).

(٢) الآية ١٩ من سورة المزمل أو ٢٩ من سورة الإنسان.

(٣) الآية ٢١ من سورة الذاريات.

الفهرس العام للموضوعات

* * *